الجوانب السايكولوجية
في أدب الجاحظ

د . نوري جعفر

ن الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام - الجمهورية العراقية
١٩٨١ ـــــــــــــ سلسلة دراسات (٢٨٦)

الجوانب السايكولوجية
في أدب الجاحظ

د. نوري جعفر

- ١ -

قال الفرزدق - على ما ذكر الرواة - « كنتُ في المجلس الذي أنشد فيه عَدِيٌّ بن الرِّقَّاع كلمته :

عَرَفَ الدِّيار تَوَهُّماً فاعتادها . . .

وجرير الى جانبي . فقلت لجرير - مشيراً الى عديٍ مُسخُرا - من هذا الشامي؟ فلمَّا ذُقنا كلامه يئسنا منه . فلما بلغ إلى قوله : تُزجي أَغَن كأنَّ إبرة رَوْقه . . .

وعديٌّ كالمُستريح قال جرير : أما تراه يَسْكُبُ فيها مثلاً ؟ فقلت يا لكَع إنه يقول :

. . . قَلَمٌ أصاب من الدَّواة مِدادها

فقال عَدِيٌّ : « قَلَمٌ أصابَ من الدواة مِدَادَها » . فقال جرير : أكان سمعُك مَخْبوءاً في صدره !!! فقلت : اسكتْ . شَغَلني سبُّك عن جيد الكلام . »

وأنا أقول - مع الفرزدق - شغلني « علم الدماغ » عن جيد الكلام . فشكراً لوزارة الثقافة والفنون التي هيأت لي فرصة الاستمتاع بجيد الكلام والمساهمة في هذه المناسبة التاريخية العظيمة بالتحدث عن « الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ » .

أيها الحفل الكريم : أرجو أن تسمحوا لي بإبداء بعض الملاحظات التمهيدية العامة قبل الدخول في صلب الموضوع الذي لم يُطرق في السابق على ما أعلم وهو - كما تعلمون - موضوع معقَّد متشابك الجوانب وطويل اضطرَّني إلى قراءة جميع ما وقع في يدي من كتب الجاحظ المنشورة التي ذكرتُها في نهاية هذا البحث.

لا شك عندي في أن تقدير الجوانب السايكولوجية والأهمية الإجتماعية والأيديولوجية للأديب [من ناحية محتوى أدبه أو مضمونه ومن ناحية أناقة ألفاظه وغزارتها ورقة تعابيره ودقتها] يتوقف على النظر إلى تراث الأديب المَعْنيِّ نظرة تاريخية شاملة وعميقة في ضوء ظروفه الإجتماعية بالنسبة لمجتمعه وعصره . وهذا يستلزم أن يأخذ الباحث بعين الإعتبار عوامل ثلاثة كبرى متلاحمة ومتبادلة الأثر : فلا بُدَّ من النظر - أولاً - إلى طبيعة الفترة الزمنية التي يعيش فيها الأديب موضوعُ البحث من حيث خصائصها التاريخية البارزة المتميِّزة ومن ناحية التناقضات الاجتماعية الكبرى الشائعة أثناء تلك الفترة للكشف عن مدى تغلغل الأديب في أعماقها ومدى انعكاس ذلك التغلغل في أدبه بشكل واضح صريح أو ضمني . ولا بد - ثانياً - من إماطة اللثام عن نزعة الأديب الاجتماعية العامة وخصائصه السايكولوجية وروابطه الأيديولوجية وانتماءاته السياسية والإقتصادية ومدى نضجه الفكري وحرارة مشاعره ومهارته الأدبية وأصالته الفنية الجمالية وسعة الأحكام التي يطلقها على الأحداث والأشخاص والظواهر المحيطة به وسلامة تلك الأحكام وعمق الاستنباطات الإجتماعية التي يتوصل اليها كما يبدو ذلك كله في نتاجه الأدبي . ولا بد - أخيراً - من النظر إلى فنه اللغوي وبراعته في التعبير عن آرائه في ضوء الأسلوب الأمثل الشائع في مجتمعه مع ملاحظة دقة ألفاظه وغزارتها وأناقتها وانسجامها في العبارات والفقرات[1] .

ولا شك عندي أيضاً في أن هناك ارتباطاً عضوياً وأثراً متبادلاً بين الأدب وعلم النفس على نسق ما هو موجود بين الأدب والسياسة وبين الأدب والاقتصاد والتاريخ والفلسفة وعلم الإجتماع . وقد ثبت أيضاً وجود ارتباط وثيق بين الأدب والعلوم

---

(١) العبارات التي وردت في هذه الصفحة وفي الصفحات التي سبقتها مأخوذة بالنص في بحث للمؤلف ماثل للطبع عنوانه «مع الحريري في مقاماته».

الطبيعية لا سيما الفيزياء . وتحضرنا ـ في هذه المناسبة ـ ملاحظات عميقة وطريفة أبداها آينشتين قبيل وفاته عام ١٩٥٥ عندما قال : إن الفكر العلمي ينطوي دائماً على عنصر شعري وإنه تعلَّم من دوستوييفيزكي الأديب الروسي الذي عاش في القرن الماضي أكثر مما تعلَّمه من نيوتن عالم الفيزياء البريطاني الذي عاش في القرن السابع عشر . والعلاقة بين الخيال المجنَّح للأديب الأصيل وبين الفكر العلمي الأصيل تتجلى في الوقت الحاضر في القصص العلمية الخيالية sciencefietion . كما أن للصلة الوثيقة بين العلوم الطبيعية والأدب مضامين تربوية بالغة الخطورة في الوقت الحاضر تتَّضح إذا تذكرنا أن المَعْنيِّن بشؤون التربية ـ في مختلف الأقطار ـ يتحدثون عن ضرورة إجراء تبدُّلات واسعة وعميقة في نظام التعليم السائد وفي العملية التربوية ذاتها لصالح الرياضيات والعلوم الطبيعية في ضوء التقدم العلمي النظري والتكنولوجي المذهل الحديث . وموقفهم هذا معقول ومقبول ونابع في الأساس من طبيعة المرحلة التاريخية الراهنة . وحاجة الجيل الجديد إلى المعرفة العلمية النظرية والتكنولوجية ضرورة ملحَّة لا تقل أهميتها عن حاجة المجتمع نفسه إلى العلوم الطبيعية النظرية والتكنولوجية لضمان تقدمه المادي والثقافي على حد سواء . ولكن ـ مع ذلك وربما بسببه ـ فإن حاجة الجيل الجديد الى الأدب بما فيه الفن ضرورية وملحَّة أيضاً وذلك لأن العلوم الطبيعية والأدب بما فيه الفن طرفا ثقافة إنسانية واحدة . عندئذ لا ينعزل الأدب بما فيه الفن [الذي هو سجل المشاعر الإنسانية إزاء الطبيعة والمجتمع والفرد] عن العلوم الطبيعية التي هي أساس التقدم المادي للحضارة الإنسانية .

لقد مرَّ بنا القول بأن للأدب صلة عضوية متبادلة الأثر بالسياسة والإقتصاد شأنه في هذا كشأن أوجه الحياة الفكرية الأُخَر . والصلة المشار اليها نشأت تاريخياً ـ بشكل أو بآخر ـ في مجتمع الرق وفي عهد الاقطاع . وهي تظهر اليوم في جميع المجتمعات بصرف النظرعن اختلاف أنظمتها السياسية والإقتصادية . وهذا هو بنظرنا جوهر مبدأ الإلتزام في الأدب الذي هو في أساسه شكل من أشكال الانتماء أو الولاء السياسي والإقتصادي الذي يستند ـ بعد التحليل الدقيق ـ الى نزعة فلسفية معينة يتَّخذها الأديب نقطة انطلاق في أعماله الأدبية . والإلتزام ـ المشار اليه ـ يأخذ في مجال الأدب أحد شكلين متنافرين هما : الإلتزام بمساندة الإستبداد أو الإضطهاد ونقيضه . وهذا يعني ـ بعبارة أخرى ـ أن الأديب يتخذ موقفاً خاصاً به

سلبياً أو إيجابياً [مقبولاً أو مرفوضاً بنظر غيره] إزاء الواقع الإجتماعي الذي يعيش فيه والذي ينعكس - بشكل أو بآخر - في أدبه بالتلميح أو عن طريق الرموز والألغاز أحياناً وبشكل ساخر صريح أحياناً أخَر . وهذا الموقف يتجلىَّ أولاً وقبل كل شيء في الجوانب السياسية والإقتصادية التي ينتقيها الأديب من الواقع الإجتماعي السائد والتي يركِّز اهتمامه فيها ويجسِّدها . كما يظهر أيضاً في إطرائه على بعض ما ينتقيه وفي شجبه نقيضه . وهنا تتضح نزعته المماثلة للطغيان أو الإضطهاد ونقيضها . وقد يقع الأديب أثناء ذلك - دون قصد أحياناً - في تناقض ملحوظ أو ضمني عرضي أو طارىء يبدو في نتاجه الأدبي إذا ما طُبِّقت عليه مقاييس غيره ممن عاصروه أو جاؤوا من بعده . وكثيراً ما يحمل الأديب نفسه آراء مغلوطة جنباً إلى جنب مع آرائه الصحيحة . ومقياس مكانة الأديب وأصالته ليس هو بنظرنا مجرد وجود الآراء المغلوطة في حد ذاتها - حتى وإن كانت كثيرة ومتأصِّلة - بل هو موقعها أو مكانتها في مجمل نزعته العامة ازاء قضايا عصره ومجتمعه الكبرى الملحَّة من جهة وتاريخ نشوء تلك الآراء المغلوطة عنده . فإذا كان اتجاهه العام سلمياً في ملامحه الكبرى في مرحلة نضجه الأدبي فإن أخطاءه لا تقلِّل بنظرنا من مكانته الأدبية المرموقة[٢] . ومن هذه الزاوية يبرز الجاحظ أمامنا كاتباً أصيلاً لامعاً وأديباً ممتازاً تقدمياً بمقاييس عصره ومجتمعه وبمقاييسنا الراهنة . كما أن الجاحظ لعب أيضاً دوراً إيجابياً تقدمياً هائلاً في تاريخ النثر الفني العربي وبرهن على أنه الفنان الأول الأصيل الذي عالج - بأسلوب ساخر - موضوعات متنوعة ومهمة مستمدة من طبيعة الحياة الإجتماعية السائدة في عصره ومجتمعه . كما كان أيضاً أديباً يتصف - كما سنرى - بقدرة عجيبة على التغلغل السايكولوجي في أعماق النفس البشرية في حالتها السويَّة الطبيعية المعتادة وفي حالتها المنحرفة كما ظهر ذلك في رسالة القيان وفي الأجزاء التي عثرنا عليها من كتاب اللصوص المفقود . ومن هذه الزاوية فان تغلغل الجاحظ في أعماق النفس البشرية - وبخاصة في حالاتها الشاذة أو المنحرفة التي اتسمت بالقسوة اللامشروعة ازاء الآخرين وبعدم الاكتراث بمشاعرهم - لا يقل أصالة وعمقاً - على ما نرى - عن تحليلات سايكولوجية عميقة مماثلة لحالات مشابهة لدى فئة من أبرز الأدباء في مجتمعات أُخَر عاشوا بعد الجاحظ بفترات زمنية متباعدة وفي طليعتهم شكسبير [١٥٦٤ - ١٦١٦] وبلزاك [١٧٩٩ - ١٨٥٠] وتاكري [١٨١١ - ١٨٦٣] ودكنز

(٢) المصدر السابق الماثل للطبع .

[١٨١٢ - ١٨٧٠] - وبخاصة في فترة نضجه الأدبي - وتولستوي [١٨٢٨ - ١٩١٠] ودستويفسكي [١٨٢١ - ١٨٨١] واميل زولا [١٨٤٠ - ١٩٠٢] وموبا سان [١٨٥٠ - ١٨٩٣] وجيكوف [١٨٦٠ - ١٩٠٤] ومكسيم غوركي [١٨٦٨ - ١٩٣٦] وكتاب معاصرون آخرون تتعذر الإحاطة بهم منهم مثلاً جيمس جويس وكافكا. ولولا الإستطراد لاستشهدنا بطائفة من الأمثلة تثبت وجاهة ما ذهبنا إليه. ومن طريف ما لاحظناه - في هذا الصدد - هو أن الجاحظ وزملاءه المار ذكرهم كثيراً ما كانوا يتركون [إلى جانب القسوة المفرطة عند وصفهم السلوك المنحرف] للرأفة أو الناحية الإنسانية نصيباً واضحاً في سلوك الفرد المنحرف. وهذا واضح عند الجاحظ في رسالة « اللصوص » أو في الأجزاء غير المفقودة منها بعبارة أدق كما سنرى. فقد اتصف هؤلاء اللصوص المحترفين القساة بالأريحية والشهامة وبالعطف عند النساء والشيوخ والأطفال وبالعطف أيضاً على المحتاجين الذين سلبوا أموالهم. وهذا نمط من الأريحية والشهامة لا يحتاج إلى شرح أو تعليق.

لقد كان الجاحظ - بالإضافة الى ذلك - أديباً يغلب عليه طابع الالتزام الإجتماعي والأيديولوجي ومن الناحية الفنية الجمالية اللغوية: أي أنه - بنظرنا - كان يجنح في الأعم الأغلب نحو الإلتزام من ناحية محتوى أدبه أو مضمونه ومن ناحية أسلوب التعبير عنده. فقد كان ملتزماً - من حيث المحتوى الإجتماعي بكل ما هو جميل وأنيق في علاقات الناس واستهجان نقيضه. وكان ملتزماً أيضاً - من ناحية التعبير - بكل ما هو أنيق وجميل من حيث الألفاظ الرشيقة المترفة ومن حيث انتظامها في العبارات والفقرات[٣].

كان أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ - على ما يقول الرواة - مولى أبي القَلَمَّس عمرو بن قَلْع الكِناني أحد النسّابين. وكان جده أسود اللون يقال له فزارَة اشتغل جمّالاً لعمرو بن قَلْع. وسُمّي الجاحظ لجحوظ عينيه أو نتوئهما. توفي والده وهو صبي. وقد ولد في البصرة [سنة ١٦٣ هـ أو ٧٨٠م] وتوفي فيها [عام ٢٥٥ هـ أو ٨٦٩ م] بعد أن عاش زهاء قرن. وهذا يعني أن فترة حياة الجاحظ استغرقت فترات حكم اثني عشر خليفة عباسي[١] وأن نضجه الفكري بدأ بالتبلور في

(٣) المصدر السابق: الماثل للطبع.

١ : فالجاحظ ولد في أواخر خلافة المنصور وتوفي عام مقتل المعتز. وشهد - بالطبع - خلافة المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز الذي بويع له عام ٢٥٥ وقتل في العام نفسه.

عهد المأمون وبلغ ذروته في عهد المعتصم والواثق والمتوكل . وقد تعاونت البصرة بمرْبَدها وعلمائها ونزعتها في الإعتزال مع مدينة السلام [التي انشأها المنصور عام ١٤٦ هـ واتخذها عاصمة للخلافة ومع سرَّ مَنْ رأى التي انشأها المعتصم واتخذها عاصمة للخلافة سنة ٢٢١ هـ] في تكوين الجاحظ أديباً فذاً وعلماً من أعلام علم الكلام البارزين - كشيخه النَّظام[٢] - وشخصية اجتماعية مرموقة . وقد هيأت له حياته في الحواضر الكبرى الثلاث فرصة نادرة للدراسة والتأليف والإتصال برجال الفكر والسياسة والأدب وبالمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل فنال جوائزهم وتمتَّع برعايتهم وتشجيعهم . وهذا واضح بصورة خاصة في بغداد وسرَّ من رأى في زمن المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل عَبْرَ رجال الأدب والسياسة البارزين [ابراهيم بن العباس الصُّولي والفتح بن خاقان ومحمد بن عبد الملك الزَّيَّات وأحمد بن دؤاد . كما هيأت له حياته في بغداد وسرَّ مَنْ رأى فرصة نادرة للجاه والثراء . قال ميمون بن هرون - على ما ذكر ياقوت في معجم الأدباء - « قلت للجاحظ : أَلَكَ بالبصرة ضيعة ؟ فتبسَّم وقال : إنَّما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار . أهدَيتُ كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزَّيَّات فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديت كتاب البيان والتبيين الى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديت كتاب الزرع والنخيل إلى ابراهيم بن العباس الصُّولي فأعطاني خمسة آلاف دينار . فانصرفتُ إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد . » وقال الجاحظ أيضاً « ذُكِرْتُ للمتوكل لتأديب بعض ولده . فلما رآني استبشع نظري أمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني . »

- ٣ -

تلك ملاحظات عامة أوردناها تمهيداً للدخول في صميم الموضوع : « الجوانب السايكولوجية لأدب الجاحظ . » وهو موضوع مؤقت - كما هو واضح - من ركنين متلاحمين ومتميِّزين في الوقت نفسه هما : « الجوانب السايكولوجية » من ناحية و« أدب الجاحظ » من ناحية أخرى . والمقصود بالجوانب السايكولوجية - في هذه الدراسة - النواحي النفسية الذاتية الخاصة بالمشاعر أو الإنفعالات التي أبداها الجاحظ بشكل صريح أو ضمني - مباشر أو غير مباشر - إزاء الشخصيات المعروفة - والوهمية المفترضة - التي تحدَّث عنها الجاحظ وعن الظروف والملابسات التي أحاطت

بها من جهة وبقدرته العجيبة على التغلغل في أعماقها والكشف عن خلجات النفس عند كل منها وببراعته في تقمُّص شخصياتها والنطق باسمها سواء أكان ذلك بلسان الحال أم بلسان المقال من جهة أخرى . أمَّا الجانب الآخر من عنوان هذا البحث الذي هو « أدب الجاحظ » فالمقصود به ـ لأغراض هذه الدراسة أيضاً ـ الموضوعات الكثيرة والمتنوعة المقترنة باسمه بصرف النظر عما إذا كانت تلك الموضوعات أدبية محضة بالمعنى المألوف أو غير أدبية وذلك لأن الطابع الأدبي هو الغالب عليها . فالجاحظ ـ كما هو معلوم ـ أديب ولغوي ومتكلِّم ومعتزلي وموسوعي استوعب أهم معارف مجتمعه وعصره وألَّف فيها . وقد اتضحت الجوانب السايكولوجية بشكلها المتبلور لديه في كتاب البخلاء وفي رسالة التربيع والتدوير وفي رسالة القيان وفي الأجزاء غير المفقودة في كتاب اللصوص كما سنرى . ربما أن الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ تستلزم أولاً وقبل كل شيء التحدث عن الجاحظ نفسه من حيث هو أديب ومفكر وعن ظروفه وعلاقاته الإجتماعية فلا بُدَّ اذن أن نبدأ من البداية .

ـ ٤ ـ

لقد تخطَّى اسم الجاحظ اسماء لامعة كثيرة عاصرته وجاءت من بعده وسبقته في عالمنا العربي الإسلامي وتخطَّى أيضاً حدود الزمان والمكان وأصبح في عداد الأدباء الذين اتصفوا بالخلود . والجاحظ يجنح في أسلوبه نحو السخرية أو التهكم والازدراء ويتصف بالمرح وروح الدُّعابة وبالقدرة العجيبة على الإحتجاج للشيء ونقيضه . وله خيال أدبي واسع ومبدع مكَّنه من ابتداع كثير من الأحداث والشخصيات وتزويقها والمبالغة في إبرازها وتهويلها إلى درجة مفزعة في أغلب الأحيان . وللجاحظ أيضاً قدرة عجيبة على الملاحظة والإستقصاء والدقة في تصوير الأمور المادية المحسوسة وخلجات النفس البشرية والتغلغل في أعماقها وفي خلط الجد بالهَزْل بشكل يتعذَّر على المرء أن يميِّز بينهما في كثير من الأحيان .

ـ ٥ ـ

لم ينغمر الجاحظ انغماراً مباشراً في الشؤون السياسية الكبرى آنذاك . ولكنه أقحم نفسه في ملابساتها بطريقة غير مباشرة عَبْرَ اتصالاته بالشخصيات البارزة المتنافسة وفي طليعتها ثُمامة بن أشرس وابراهيم بن العباس الصولي ومحمد بن الملك الزيات والفتح بن خاقان واحمد بن دؤاد . كما أنه أيضاً أقحم نفسه في خضم

الملابسات السياسية ـ بطريقة غير مباشرة أيضاً ـ عن طريق مواقفه المؤيِّدة تأييداً تاماً ومطلقاً لمذهب الاعتزال الذي اعتنقه في البصرة بتأثير استاذه النظّام ودافع عنه بحرارة طول فترة حكم المأمون والمعتصم والواثق وتشاغل عنه بشكل مقصود وانهمك في أمور فكرية أُخَر أثناء مناوءة مذهب الاعتزال ـ مناوءة سياسية بالدرجة الأولى ـ ومطاردة أصحابه في عهد المتوكل.

لقد كانت صلة الجاحظ بثُمامَة بن أشرَس فكرية واجتماعية وثيقة. وثمامة هذا هو أحد معتزلة **البصرة** البارزين الذين قدموا بغداد في عهد الرشيد والمأمون. ولثمامة اخبار أدبية طريفة يرويها الجاحظ في أمهات كتبه لا سيما في كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء. وقد حبس ثمامة ثم أطلق سراحه[٣]. وفي عهد المأمون ارتفعت مكانته وعرضت عليه الوزارة فاعتذر عن قبولها. وهو الذي قرَّب يحيى بن اكثم[٤] الى المأمون الذي عيَّنه قاضياً للبصرة. وكان ثمامة حلقة الوصل

---

(٢) النَّظّام هو أبو اسحق ابراهيم بن سيَّار النَّظّام البصري. وإليه تُنسب الفرقة النظّامية المعروفة في مذهب الاعتزال وهو شيخ الجاحظ وقد توفي في خلافة المعتصم.

(٣) ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن الرشيد سأل يوماً جلساءه وفيهم ثمامة بن اشرَس ـ بعد أن أطلعه الرشيد من الحبس ـ عن أسوأ الناس حالاً فأجاب ثمامة «أسوأ الناس حالاً عاقل يجري عليه حكم جاهل.» ولكنَّه عقَّب على ذلك فوراً عندما تبينَّ الغضب في وجه الرشيد لظنه أنه المَعْنيُّ بذلك فقال «يا أمير المؤمنين ما أحسبني وَقَعْتُ بحيث أردتَ. وإنما عَنَيْتُ حادثةً وهي أنَّ سلاما الأبرشي ـ وكان سجَّاناً وأنا في السجن وكان يقرأ في المصحف «ويل يومئذ للمكذَّبين» ـ بفتح الذال مع تشديدها ـ فقلتُ له المكذِّبين ـ بكسر الذال مع تشديدها ـ وهم الرُّسُل.

والمكذِّبون ـ بتشديد الذال المكسورة ـ هم الكُفَّار. فاقرأها: «ويل يومئذ للمكذِّبين بالتشديد مع الكسر. فقال سلام: قيل لي من قبل إنَّك زنديق ولم أقبل... ثم ضيَّق عليّ أشد التضييق.» فجعل الرشيد يضحك. ومن طريف ما يروى عن ثُمامة أن رجلاً قال له: إنَّ لي إليك حاجة. فقال ثُمامة: ولي إليك حاجة. قال الرجل: وما هي؟ قال لا أذكرها حتى تتضمن قضاءها. قال قد فعلتُ. قال ثُمامة: حاجتي إليك ألاّ تسألني هذه الحاجة. قال الرجل: رجعتُ عمّا أعطيتُك. قال ثُمامة لكنني لا أردُّ ما أخذتُ.

(٤) وعندما ولي يحيى بن أكثم القضاء بالبصرة لم تتجاوز سنه السادسة والعشرين. فاستصغره أهل البصرة، فقال أحدهم معرِّضاً به: كم سن القاضي؟ فعلم يحيى أنه استصغره. فقال: أكبر من عتَّاب بن أسيد حين بعثه رسول الله قاضياً على أهل مكة يوم الفتح. وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين أرسله النبي قاضياً على أهل اليمن. وأنا أكبر من كعب بن سور حين ولاَّه عمر قاضياً على أهل البصرة. وكان أكثم من خصوم المعتزلة وقد أعفي عن القضاء في عهد الواثق ولزم داره. وعندما بدأ عهد الاعتزال بالانحسار في بداية عهد المتوكل وفُلج القاضي أحمد بن أبي دؤاد ـ وحلَّ ابنه محمد أبو الوليد محله فترة قصيرة ثم أقصاه المتوكل وحبسه مع اخوته وصادر أموالهم استدعى يحيى بن أكثم وأسند إليه منصب القضاء.

بين المأمون والجاحظ وعن طريقه ـ على ما يبدو ـ وصل إلى المأمون كتاب الجاحظ « في الإمامة » وبتأثيره أسندت الى الجاحظ إدارة « ديوان الرسائل » التي بقي فيها ثلاثة أيام فقط ثم تركها : فعلّق سَهْل بن هرون على ذلك بقوله « لو ثَبَتَ الجاحظ في هذا الديوان لأفَلَ نجم الكُتَّاب ». وقد كتب الجاحظ عن اتصاله بالمأمون ومنزلته عنده ما يلي [البيان والتبيين : ج٣ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥] « ولما قرأ المأمون كتبي في الامامة فوجدها على ما أمر به وصرت اليه أمر اليزيدي[٥] بالنظر فيها ليخبره عنها قال لي : قد كان بعض من يُرْتَضَى عقله ويَصْدُق خبره عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة قلنا له : قد تُرْبي الصفة على العيان . فلمّا رأيتها رأيت العيان أَرْبَى على الصفة . فلمّا فَلَّيْتُها أَرْبَى الفَلْيُ على العيان كما أَرْبَى العيان على الصفة . »

وفي عهد المأمون أيضاً توثّقت الصلة بين الجاحظ والأديب والشاعر ـ المقلّ المبدع ـ ابراهيم بن العباس الصُّولي[٦] أثناء تولّيه ديوان الرسائل في عهد المأمون .

---

(٥) اليزيدي : أبو محمد يحيى بن المبارك البصري النحوي اللغوي أحد القرّاء والفصحاء . أخذ عن الخليل . قال ابن المنادي أكثرتُ من السؤال عن أبي محمد اليزيدي ومحله من الصدق ومنزلته من الثقة لعدة من شيوخنا بعضهم أهل عربية وبعضهم أهل قرآن وحديث . فقالوا هو ثقة صَدوق لا يرفع عن سماع ولا يرغب عنه في شيء غير ما يتوهم عليه من الميل إلى المعتزلة . وكان يجلس ـ أيام الرشيد ـ مع الكسائي في مسجد واحد في بغداد يُقرئان الناس . وله تصانيف كثيرة منها : كتاب النوادر في اللغة . وكتاب المقصور والممدود . وكتاب النقط والشَّكْل . ومختصر في النحو ألَّفه لبعض ولد المأمون . وقد عُرِف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور الحميري ـ خال المهدي ـ وتأديبه ولده . وقد نُسِبَ إليه . ثم اتصل بالرشيد وأصبح مؤدِّباً للمأمون . وكان أحد كبار القرّاء . وقد توفي بخراسان عام ٢٠٢ هـ . ومن طريف ما روي عنه ـ أثناء تأديبه المأمون في عهد الرشيد ـ أنّه قال « كنتُ أؤدِّب المأمون . . . فأتيتُه يوماً وهو داخل . . . . فوجّهتُ إليه بعض غلمانه . فأبطأ . ثم وَجّهتُ إليه آخر . فأبطأ : فقلتُ لسعيد الجوهري : إنّ هذا الفتى ربما تأخّر وتشاغل بالبطالة !! فقال قَوِّمْه بالأدب . . . فلما خرج أمرتُ بحمله وضربته تسع دِرر [بكسر الدال وفتح الراء جمع دِرَّة بكسر الدال وفتح الراء المشدَّدة : أي العصا الصغيرة أو السوط] . فانّه ليدلك عينيه من أثر البكاء إذا قيل جعفر بن يحيى فاستأذن على المأمون . فأخذ المأمون منديلاً فمسح عينيه وجمع ثيابه وقام إلى فراشه وقعد عليه متربعاً . ثم قال يدخل جعفر . فدخل فقمتُ أنا عن المجلس . . . . ثم سأل عني ـ بعد أن خرج جعفر ـ فقال خذ ما بقي من نهاري . فقلت أيها الأمير لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر . ولو فعلتَ ذلك لتنكّر لي . فقال المأمون إنّا لله أتراني ـ يا أبا محمد ـ أطلع الرشيد في هذه ؟ فكيف جعفر أطلعه على أني أحتاج إلى أدب ؟ يغفر الله لك . خذ في أمرك فقد خطر ببالك ما لا تراه أبداً ولو عدت في كل مرة . »

(٦) الصُّولي ـ إبراهيم بن العباس ـ منسوب إلى جده صُول أحد أمراء جُرجان الذي اعتنق الإسلام على يد يزيد بن المهلّب بن أبي صُفرة . وإبراهيم هذا هو عم أبي بكر الصولي = الشطرنجي ـ صاحب كتاب الوزراء » . وقد اتصل ابراهيم ـ وشقيقه عبد الله ـ بذي الرياستين ـ الفضل بن سهل ثم تقلد ديوان

وكان الجاحظ يخلفه فيه أثناء تغيّبه في شأن من شؤونه حتى لُقِّب الجاحظ بخليفة

=

الضياع والنفقات بسرّ مَنْ رأى . وكان شاعراً رقيقاً وأشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة . ومن رقيق شعره في الغزل .

دَنَتْ من أناسٍ عن نَثاءِ زيارةً وشَطَّ بليلى عن دُنُوٍّ مَزارُها
وإنَّ مقيماتٍ بمنعرَجِ اللّوَى لأقربُ من ليلى وهاتيكَ دارها

وفي الرثاء :

كنت السّوادَ لمقلتي فبكى عليكَ النّاظِرُ
مَنْ شاء بعدك فليمتْ فعليك كنتُ أحاذر

وفي الجلد والتحمّل :

ولرب نازلةٍ يضن بها الفتى ذَرْعاً وعند الله منها المَخْرَجُ
ضاقت فلمّا استحكمتْ حلقاتها فُرِجَتْ وكان يَظُنُّها لا تُفْرَجُ

وفي التنقل :

لا يمنعنّك خَفْضُ العيش في دَعَةٍ نُزُوعُ نفس إلى أهلٍ وأوطانِ
تلقى بكل بلادٍ إن حللتَ بها أهلاً بأهلٍ وأوطاناً بأوطانِ

وقال يصف نفسه :

أميل مع الذّمام على ابن أمّي وآخُذ للصديق من الشقيقِ
وإنْ ألفيتَني حُرّاً مُطاعا فإنّكَ واجدِي عبدَ الصّديق
أُفرّق ما بين معروفي ومَنّي وأجمع بين مالي والحقوق

ولمّا عزم المأمون على الفتك بالفضل بن سهل وندب له عبد العزيز بن عمران وآخرين نُمي الخبر إلى الفضل فأظهره على المأمون وعاتبه عليه . فلمّا قُتل الفضل وقَتل المأمون قتلته سأل : من أين سقط الخبر إلى الفضل ؟ فعرف أنه من جهة ابراهيم بن العبّاس فطلبه فاستتر. وكان إبراهيم عرف الخبر من جهة عبد العزيز بن عمران وكان الفضل استكتب إبراهيم لعبد العزيز بن عمران فأخبر به الفضل .

ولمّا عقد المتوكل لولاة العهد من ولده وأذِنَ للناس فدخلوا إليه مهنئين . فلمّا تكاملوا بين يديه مثل ابراهيم بن العباس وأنشد :

ولمّا بدا جعفرٌ في الخميس بين المُظَلِّ وبين العروس

بدا لابساً بهما حُلّةً أزيلَتْ بها طالعاتُ النحوس
ولمّا بدا بين أحبابه ولاةُ العهود وعزُّ النفوس
غدا قمرا بين أقماره وشمساً مكلّلةً بالشموس

ثم أقبل على ولاة العهد وقال :

الصُّولي في ديوان الرسائل . وقد أهدى الجاحظ الصُّولي كتاب « الـزرع والنخـل

=

اضحـت عُـرَى الإسـلام وهـي منـوطَةٌ بـالنَّصـر والأعـزار والتأييـد
بخليفـة من هـاشـم وثـلاثة كنفـوا الخـلافـة من ولاة عهـود
رَفَعَتْهـمُ الأيـام وارتفعـوا بـه فسَـعـوا بأكـرم أنفسٍ وجـدود

وكان إبراهيم بن العباس الصولي صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيات قبل الاستيزار . فلما استوزر المعتصم ابن الزيات تنكر هذا لصديقه وأعرض عنه وباشر بايذائه وإلى هذا الموقف المتبدل أشار الصولي بقوله :

وكنـتُ أخـي رخـاء الـزمانَ فلمَّـا نَبـا صـرتَ حـربـا عَوَانا
وكنـتُ أذُمُّ إليـك الزمـانَ فاصبحـتُ منـك أذِمُّ الـزمـانا
وكنـت أعـدُّك للنـائبـات فهـا أنـا أطلـب منـك الأمـانا

وقد صادره ابن الزيات بألف ألف وخمسمائة ألف دينار (ابن الأثير : الكامل في التاريخ / المجلد السابع / دار بيروت / ١٩٦٥ ص ١٠) ومما أضرم نار البغضاء بينهما ان محمد بن عبد

ومما أضرم نار البغضاء بينهما ان محمد بن عبد الملك الزيات أودع مالاً عظيماً وجوهراً نفيساً : وقد رأى تغيراً في الواثق فخافه وفرّق ذلك في ثقاته من أهل الكرخ . فنظم ابراهيم بن العباس أبياتاً بهـذا المعنى وأشاعها حتى بلغت الواثق ليغريه به :

بجـانـب الـكـرخ عنـد قـوم أنـت بمـا عنـدهـم خبـير

ولمَّا عُزل ابراهيم بن العباس الصولي عن الأهواز في أيام محمد بن عبد الملك الزيات اعتقل بها وأوذي بتحريض ابن الزيات .

وكان يؤمل منه أن يسامحه ويطلقه . فكتب إليه :

فلـو إذ نَبـا دهر وأنـكَرَ صاحبٌ وسُلِّـط أعداء وغـاب نَصيرُ
تكون عن الأهـواز داري بنَجوةٍ ولـكـنْ مقـاديرٌ جـرتْ وأمورُ
وإنِّـي لأرجـو بعـد هذا محمَّداً لأفضـلِ مـا يُرجـى أخٌ ووزيرُ

وكتب أيضاً إليه يستعطفه « كتبتُ إليك وقد بلغت المُدية المحزَ وعَدَت الأيام بك عليَّ بعد عدوي بك عليها . وكان أسوأ ظنِّي وأكثر خوفي أن تسكُن في وقت حركتها وتكُفَّ عند أذاها . فصرتَ عليَّ أضرَّ منها وكفَّ الصديقُ عن نُصرتي خوفاً منك وبادر إليَّ العدو تقرباً إليك .

ثم هجاه بقوله :

أبـا جعفـرٍ خَفِّ خفضـةً بعـد رفعةٍ وقصِّـر قليلاً من مَدى غُلَوائكا
لَئِـن كان هذا اليوم يومـاً حويتَه فـإن رجـائـي في غدٍ كرجائكا

وقال أيضاً :

دعوتُـك في بلـوَى ألمَّـتْ صرُوفها فاوقـدتَ من ضِغْـنٍ علـيَّ سعيرَها

والزيتون والأعناب » وأجازه عليه خمسة آلاف دينار كما بينّا . غير أن ذلك الإهداء أثار حفيظة محمد بن عبد الملك الزيات وأدّى ـ بعد ذلك ـ بالجاحظ الى أن يوجّه لابن الزيّات رسالته المرسومة « في الجد والهزل » التي سيأتي ذكرها . واتصل الجاحظ أيضاً بالوزير محمد بن عبد الملك الزيّات[٦] وقدّم له ـ كما بينّا ـ كتاب الحيوان فأجازه

=

فإني إذا أدعوكَ عند مُلمّة كداعيةٍ عند القبور نصيرَها

وقال يهجوه أيضاً :

قَدرتَ فلم تقرر عدوا بقدرةٍ وسُمتَ بها اخوانك الذُلّ والرُّغما
وكنتَ مليئاً بالتي قد يَعافُها من الناس من يأبى الدَّنيقة والذمّا

ومن طريف ما يروى أن إبراهيم بن العباس قال لأبي تمام وقد أنشده شعراً له في المعتصم : يا أبا تمام أمراء الكلام رَعيَّةٌ لإحسانك . فقال له أبو تمام : ذلك لإنني أستضيء بك وأرد شريعتك . وقد توفي إبراهيم الصولي سنة ٢٤٣ هـ وكان قبل ذلك عندما بلغه موت ابن الزيات وقال :

لمّا أتاني خبر الزَّيات وإنّه قد صار في الأموات
أيقنتُ أنّ موته حياتي

(٧) وابن الزيات هذا مدحه أبو تمام بقصيدة عصماء وردت فيها الأبيات الرائعة الآتية في وصف القلم :

لَكَ القَلَمُ الأعلى الذي بِشُباتِه : تُصاب من الأمر الكُلى والمفاصلُ
لُعابُ الأفاعي القاتلات لُعابُه : وأَرْيُ الجَنى اشْتارَتْه أيدٍ عواسل
له رِيقَةٌ طَلٌّ ولكنّ وقعها : بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيحٌ إذا استنطقته وهو راكبٌ : وأعْجَمُ إنْ خاطبْتَه وهو راجل
إذا ما امتطى الخمسَ اللطافَ وأفرِغَتْ : عليه شِعابُ الفكر وهي حوافِلُ
أطاعته أطرافُ القنا وتعرَّضَتْ : لنجواه تقريضَ الخيام الحجافِلُ
وقد رَفَدَتْه الخنصران وسدَّدَتْ : ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مُرْهَفٌ : ضَنىً رسمياً خَطْبُه وهو ناحل

ولابن الزيات منزلة رفيعة عند الجاحظ اتضحت في تقديمه كتاب الحيوان له وفي الملاحظات التالية [زهر الآداب ص ٥٣٩] :

« قال الجاحظ تشاغلتُ مع الحسن بن وهب أخي سليمان بن وهب بشرب النبيذ . فطلبني محمد بن عبد الملك الزيات لمؤانسته فأُخبِرَ باتصال شُغلي مع الحسن بن وهب . فتنكّر لي وتلوّث عليّ . فكتبتُ إليه رقعة نسختها : « أعاذك الله من سوء الغضب وعَصَمَك من سرَف الهوى وصرَفَ ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ورجّح في قلبك إيثار الأناة . فقد خِفْتُ ـ أيدك الله أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق السفهاء ومجانبة سُبُل الحكماء . . . فإن كنتُ اجترأت عليك ـ أصلحك الله ـ فلك أجتريء إلاّ لأن دوام تغافلك عني شبيهٌ بالإهمال الذي يدرت الإغفال . والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة . . . فإنْ كنتَ لا تهب

عليه خمسة آلاف دينار . وابن الزَّيَّات خصم لدود للصُّولي . واتصل الجاحظ كذلك بالقاضي احمد بن أبي دؤاد[٦] وهو أحد خصوم ابن الزيات وقدَّم له ـ كما ذكرنا ـ كتاب

=

عفاي ـ أيدك الله ـ لخدمة فهبْه لاياديك عندي فإنَّ النِّعمَة تشفع في النِّقمَة ، وإلاَّ نفعل ذلك لذلك فَعُدْ إلى حُسْن العادة . وإلاَّ فافعل ذلك لحسن الأحدوثة . . . . وأعلم ـ أيدك الله ـ أنَّ شَيْن غضبك عليَّ كزَيْن صفحك عني وأنَّ موت ذكري مع انقطاع سببي منك لحَياة ذكرك مع افصال سببي لك . واعلم أن لك فِطْنَة عليم وغَفْلة كريم . »

ويبدو أن عبد الملك بن الزيات هو الذي أغرى الجاحظ ربما بطريقة غير مباشرة بوضع رسالة التربيع والتدوير التي هاجم فيها بعنف ـ أحمد بن عبد الوهاب . ودليلنا على ذلك ما رواه ابن الأثير في المجلد السابع من الكامل في التاريخ (دار بيروت / ١٩٦٥ / ص ٣٢) « قال أحمد بن الوهاب في الواثق :

أَبَتْ دارُ الأحبَّة أنْ تَبينا أجِدكَ ما رأيتَ لها مُعينا
تَقطَّعُ حسرةً من حبِّ ليلى نفوسٌ ما أُثِبْنَ ولا جُزينا

فصنَعَتْ فيه عَلَم ـ جارية صالح بن عبد الوهاب شقيق أحمد ـ لحناً فغنَّاه زَرْزَرُ الكبير للواثق فسأله : لمن هذا ؟ فقال لعَلَم . فأحضر صالحاً وطلب منه شراءها فأهداها له . فعوَّضه خمسة آلاف دينار فمطله بها ابن الزَّيات وزير الواثق ـ فأعادتْ عَلَم الصوت . فقال الواثق بارك الله عليكِ وعلى من ربَّاكِ . فقالت ما ينفع مَنْ ربَّاني : أمرتَ له بشيء فلم يصل إليه .

فكتب إلى ابن الزيات يأمره بإيصال المال إليه . وأضعفه له . »

لقد مرَّ بنا ذكر فتك المتوكل بابن الزَّيات ولم نشر العامل الرئيس في ذلك . قال ابن الأثير (المصدر نفسه ص ٣٦ ـ ٣٧) موضحاً ذلك « ثم دخلت سنة ٢٣٣ وفيها قبض المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات وحبسه . وكان سببه أن الواثق استوزر ابن الزيات وفوَّض الأمور كلها إليه . وكان الواثق قد غضب على أخيه جعفر المتوكل . فأتى المتوكل إلى ابن الزَّيات يسأله أن يكلم الواثق ليرضى عنه . فوقف بين يديه لا يكلمه . ثم أشار عليه بالقعود . فلما فرغ من الكتب التي بين يديه التفت إليه كالمتهدد وقال ما جاء بك ؟ قال جئت أسأل أمير المؤمنين الرِّضى عني . فقال لمن حوله أنظروا يُغضب أخاه ثم يسألني أن أسترضيه له . اذهب فإذا صلُحتَ رضي عنك . فقام من عنده حزيناً » . وعندما تولىَّ المتوكل الخلافة وهو شاب لم يتجاوز عمره السادسة والعشرين بعد وفاة والده الواثق عام ٢٣٢ فتك بابن الزَّيات بعد توليه الخلافة بأقل من عام وأمر بابقائه في التنُّور .

(٨) وكان أحمد بن أبي دؤاد وثيق الصلة بالمتوكل قبل توليه الخلافة وقد وقف من الجفوة بين الواثق قبل خلافته والمتوكل موقفاً مغايراً لموقف ابن الزَّيات الذي ذكره ابن الأثير . وذلك ان المتوكل عندما أمره ابن الزَّيات بالخروج من حضرة الواثق ـ على ما يقول ابن الأثير ـ المصدر نفسه ـ « قام من عنده حزيناً فأتى أحمد بن أبي دؤاد . فقام له أحمد واستقبله على باب البيت وقبله . وقال ما حاجتك جُعلتُ فِداك ؟ قال جئت لتسترضي أمير المؤمنين لي . قال أفعل ونعمة عين وكرامة . فكلم أحمدُ الواثقَ به فوعده ولم يرض عنه . ثم كلَّمه فيه ثانية فرضي عنه وكساه . » وعندما توفي الواثق سنة ٢٣٢ بويع للمتوكل بالخلافة وقد لعب ابن أبي دؤاد الدور الأول والأهم في ذلك كما قال ابن الأثير (المصدر نفسه ص ٣٣ ـ ٣٤) « وسبب خلافة المتوكل أنه لمَّا مات الواثق حضر الدار أحمد بن أبي دؤاد وايتاخ ووصيف وعمر بن فرج وابن الزَّيات . . . . وعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق وهو غلام أمرد وقصير . . . فقال وصيف أما تتقون الله » . . . تولون هذه

البيان والتبيين فأجازه عليه خمسة آلاف دينار . وقد مرَّ بنا جواب الجاحظ لابن هرولي

الخلافة . . . فتناظروا فيمن يولون . . . . ثم أُحضر محمد . فلما حضر إليه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعمَّمه وقبَّل عينيه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين . . . ثم غُسِّل الواثق وصُلِّيَ عليه ودُفِن . . وكان عمر المتوكل يوم بويع ستة وعشرين سنة . . . . . وأراد ابن الزَّيات أن يلقبه المنتصر فقال أحمد بن أبي دؤاد قد رأيت لقباً أرجو أن يكون موافقاً وهو المتوكل على الله فأمر بإمضائه فكتب به إلى الآفاق . »

وقد ولد ابن أبي دؤاد في البصرة عام ١٦٠ هـ وتوفي عام ٢٤٠ هـ ومن مروءاته ـ وهي كثيرة أن المعتصم غضب على رجل من أهل الجزيرة الفراتية وأحضر السيف والنطع وأمر بضرب عنقه فقال ابن أبي دؤاد يا أمير المؤمنين سبق السيف العذل فتأنَّ في أمره فهو مظلوم . فعفا المعتصم عنه . ومنها أيضاً ما ذكره أبو العيناء : أن الإفشين كان يحسد أبا دُلَف ـ القاسم بن عيسى ـ للعربية والشجاعة . فاحتال عليه حتى شَهِدَ عليه زُوراً ، بجناية فجلس له وأحضر السَّياف لقتله . وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر فركب من وقته مع من حضر من عدوله . فدخل على الإفشين وقد جيء بأبي دُلَف ليُقتل فوقف ابن أبي دؤاد وقال للافشين : إني رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك أن لا تُحدث في القاسم بن عيسى حَدَثاً حتى تسلمه إليَّ حيّاً . ثم التفت إلى العدول وقال اشهدوا أنّي قد أديتُ الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حيٌّ معافىً . فقالوا شهدنا . وخرج وصار إلى المعتصم من وقته وفاء يا أمير المؤمنين قد أدَّيتُ عنك رسالة لم تقلها لي ما اعتدُّ بعملٍ خيرٍ خيراً منها . ثم أخبره الخبر . فصوَّب رأيه ووجَّه من أحضر القاسم فأطلقه ووهب له وعنَّف الافشين فيما عزم عليه . وله مواقف مشهودة في القضاء منها (زُهر الآداب ص ٢٥٠) الموقف الآتي : « تنازع إبراهيم بن المهدي وابن بختيشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في مجلس الحُكم في عَقار بناحية السَّواد . فأرتى إبراهيم على ابن بختيشوع وأغلظ له . فأحفظ ذلك ابن أبي دؤاد فقال يا ابراهيم إذا نازعتَ في مجلس الحُكم بحضرتنا امرءاً فلا أعْلَمَنَّ أنَّك رفعتَ صوتاً ولا أشرْتَ يداً » . وقد مدح الشعراء ابن أبي دؤاد وفي طليعتهم أبو تمام الذي قال فيه من قصيدة رقيقة :

سقى عهدَ الحِمَى سَبَلُ العِهادِ ... ورَوَّى حاضرٌ منه وبادِ
لقد أنسَتْ مساويءَ كلِّ دهرٍ ... محاسنُ احمدَ بن أبي دؤاد
وما سافرتُ في الآفاق إلَّا ... ومن جدواك راحلتي وزادي
مقيم الظنِّ عندك والأماني ... وان قَلقَتْ ركابي في البلاد

ومن طريف ما يروى عن البغضاء بين أبي دؤاد وابن الزَّيات أن شاعراً هجا ابن الزَّيات بقصيدة بلغت أبياتها سبعين بيتاً فبلغ خبرها القاضي أحمد بن أبي دؤاد فقال :

أحسنُ من سبعين بيتاً هجا ... جمعُك عنه صن في بيت
ما أحوج المُلك إلى مطرةٍ ... تغسل عنه وضَرَ الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك فقال معرِّضاً بأحد أجداد القاضي الذي كان يبيع القار :

يا ذا الذي يطمع في هجونا ... عرَّضتَ نفسك للموت
الزيتُ لا يُزري باحسابنا ... أحسابُنا معروفةُ البيت
قيَّرتُمُ المُلكَ فلم نُنْقِهِ ... حتى غسلنا القار بالزيت

وقد فُلج ابن أبي دؤاد في أول خلافة المتوكل فحل محله ولده محمد أبو الوليد . ولكن سرعان ما سخط عليه المتوكل فعزله عن القضاء وحبسه مع أخيه وصادرهما وأعاد القضاء إلى يحيى بن أكثم .

الذي سأله عمّا إذا كانت له ضيعة بالبصرة لأنه شاهد عليه إمارات الترف والرخاء .
ومن طريف ما يروى عن الجاحظ ـ في هذه المناسبة ـ انه عندما سأله أحدهم عن حاله أجاب : « سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً : حالي أن الوزير يتكلّم برأيي وينفّذ أمري ويؤثر الخليفة ايصالات لي وآكل من لحم الطير أسْمَنَها وألْبَس من الثياب أفخرها وأجلس على ألْيَن الطّبري واتكأ على هذا الريش . »

- ٦ -

ذكرنا أن الجاحظ اتصل بابن الزيات الذي توثّقت صلته به أثناء حكم الواثق الذي حكّمه في رقاب الناس وأمر أصحابه أن ينهضوا له إذا دخل عليه ولم يُرخّص لأحد . فاشتد الأمر على القاضي أحمد بن أبي دؤاد الذي بينه وبين الوزير عداوة وتنافس . ولم يجد القاضي بخلاف أمر الخليفة سبيلاً . فوكل أحد غلمانه بمراقبة موافاة الوزير . فاذا أُخْبِر بقدومه نهض يركع . فقال ابن الزيّات :

صلّى الضُّحَى لمّا استساغ عداوتي وأراه يُنسك بعدها ويصومُ
لا تَعْدِيَنَّ عداوةً مسمومة تركَتْكَ تقعُد بعدها وتقوم

وابن الزيات هذا هو صاحب « التّنور » المعروف الذي أعدّه لتعذيب خصومه [ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٧ ص ٣٧ : « وفيه مسامير حديد أطرافها إلى داخل التّنور . وتمنع مَنْ يكون فيه من الحركة . وكان ضيقاً بحيث أن الانسان كان يمُدُّ يديه الى فوق رأسه ليقدر على دخوله لضيقه . ولا يقدر مَنْ يكون فيه أن يجلس »] . وعندما قبض المتوكل على ابن الزيات وألقاه في ذلك التنّور هرب الجاحظ إلى البصرة متخفياً . فقيل له : هَرَبْتَ !!! فقال : خِفْتُ « أن أكون ثاني اثنين اذ هما في التنور » .

- ٧ -

واتصل الجاحظ أيضاً بقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد أحد خصوم ابن الزيات كما رأينا . وأحمد هذا من أصحاب المروءة والفضل والعلم على ما يقول الرواة . وهو من أصحاب واصل بن عطاء ومن القائلين بخلق القرآن . استدعاه المأمون مرة عندما جرى بمجلسه ذكر الذين بايعوا من الأنصار ليلة العقبة واختلف الحاضرون في ذلك . فدخل أحمد فعدّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكُناهم وأنسابهم . فأعجب به

المأمون وولاّه القضاء وأوصى المعتصم ـ من بعده ـ بتقريبه والإعتماد عليه . وعندما هرب الجاحظ إلى البصرة متخفياً كما ذكرنا بعد الفتك بابن الزيات قُبِضَ عليه وجيء به مقيّداً الى ابن أبي دؤاد فنظر إليه شزراً وقال بغضب « والله ما علمتك إلاّ متناسياً للنعمة كفوراً للصَّنيعَة مُقدِّراً للمساويء . وما فتّني باستصلاحي لك . ولكن الأيام لا تُصلح منك لفساد طوّيتك ورداءة داخلتك . » فقال له الجاحظ ـ بمنطقه ان بالكتيكي ـ : « خَفِّفْ عليك ـ أيَّدك الله ـ فَوَالله لإنْ يكون لك الأمر عليَّ خيرٌ من أن يكون لي عليك . ولإنْ أسيء وتُحسن أحْسَنُ من أنْ أُحسن وتُسيء . وأن تعفو عني ـ في حال قدرتك ـ أجْمَلُ من الإنتقام مني . » فقال ابن ابي دؤاد « قبّحك الله . ما علمتك إلاّ كثير تزويق الكلام . . . ما تأويل هذه الآية ؟ وكذلك أَخْذُ ربك إذ أخَذَ القُرَى وهي ظالمة إنَّ أَخْذَه أليمٌ شديد . » قال الجاحظ : تلاوتُها تأويلها أعزَّ الله القاضي . فقال القاضي جيئوا بحدَّاد . فقال الجاحظ : أعزَّ الله . القاضي : لِيَفُكَّ عني أو ليزيدني ؟ فقال بل يَفُكُّ عنك . . . ثم قال القاضي لمحمد بن منصور وكان حاضراً : « أنا أثق بظُرفه ولا أثق بدينه . . . يا غلام سرْ به الى الحمام وأَمِطْ عنه الأذى . »

ـ ٨ ـ

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان ـ وزير المتوكل وأقرب الناس اليه ـ وقد قُتل معه سنة ٢٤٧ هـ . وكان الفتح من أكابر الساسة والشعراء والعلماء في زمانه . وله تصانيف كثيرة . وقد مدحه البحتري بأكثر من ثلاثين قصيدة من غرر شعره . وعن طريق الفتح تقرَّب الجاحظ إلى المتوكل . وبتأثيره أيضاً وضع الجاحظ رسالته « في مناقب الترك » . التي سبَّبت له بعض الحَرَج . وبتحريضه أيضاً وضع الجاحظ رسالته « في الرد على النصارى » التي أصبحت موضع أخذ ورد[٦] .

---

(٩) ومن مؤلفات الفتح بن خاقان وهي كثيرة « كتاب الصيد والجوارح » وكتاب « الروضة والزهر » وكتاب « البستان » وكتاب « أخلاق الملوك » . والفتح بن خاقان هذا هو غير الفتح بن خاقان صاحب « قلائد العقيان » . وقد ذكره ياقوت في معجم الأدباء ـ عند تحدثه عن الجاحظ ـ نص الرسالة التي بعث بها الفتح إلى الجاحظ يغريه بتأليف رسالته في الرد على النصارى وهذه فقرات من تلك الرسالة : « ان أمير المؤمنين يجدُ بك ويهشُ عند ذكرك . . . .

وقد كان القي إليَّ من هذا عنوانه فزدتُكَ في نفسه . . فاعرف هذا لي واعتقدْ هذه المِنّة على كتاب للرد على النصارى وافرغ منه وعجّلْ به إليَّ . »

- ٩ -

عُرِف الجاحظ - كما ذكرنا - بسعة الإطلاع ومحبة الكتب وقراءتها واقتنائها حتى قيل « إنه لم يقع بيده كتاب إلاّ استوفى قراءته كائناً ما كان . » وقيل أيضاً إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر في الكتب . وقد توفي في أحضانها عندما سقطت عليه أثناء قراءاته وهو شيخ مفلوج . وتحضرنا - في هذه المناسبة - عبارات لأبي العيناء « ليت شعري !! أيّ شيء : كان الجاحظ لا يحسن » جواباً لمن قال « ليت شعري !! أي شيء يحسن الجاحظ !! » ويبدو أن سعة اطلاع الجاحظ وتعدد جوانبها وعمقها هي التي هيّأت له منزلة مرموقة لدى المفكرين انفرد بها . قال أبو القاسم السيرافي : « حضرنا مجلس الاستاذ أبي الفضل ابن العميد الوزير . فجرى ذكر الجاحظ فغضّ بعض الحاضرين من منزلته . وسكت الوزير عنه . فلما خرج الرجل قلت له : سكتَّ - أيها الأستاذ - عن الرجل في قوله مع عادتك في الرد على أمثاله ! » فقال لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله . . . يا أبا القاسم فكتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً . » وقيل لابن هفّان : لِمَ لا تهجو الجاحظ ؟ وقد ندَّد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمِثْلي يُخْدَع عن عقله !!! والله لو وضع رسالة في أرنبةِ أنفي لَمَا أمستْ إلاّ بالعين شُهرةً . » .

- ١٠ -

وعُرِف الجاحظ أيضاً بالظُّرف والدُّعابة وخفة الروح وبالتهكم أو السخرية

=

وقد مدح البحتري الفتح بأكثر من ثلاثين قصيدة من غرر قصائده . وقد ورد في إحداها :

وما أُقفِلَتْ عنّا جوانبُ مطلبٍ ... نحاولـه إلاّ فتحناه بالفتحِ

وجاء في أخرى :

ولمّا حضرنا سُدَّةَ الإذن أُخِّرَتْ ... رجالٌ عن الباب الذي أنا داخِلُهْ
فافضَيتُ من قُرْبٍ إلى ذِي مَهابةٍ ... أُقابلَ بَدْرَ التّم حين أُقابله
فسلّمتُ فاعتاقتْ جِناني هَيبَةٌ ... تُنازعني القول الذي أنا قائله
فلمّا تأمّلتُ الطلاقةَ وانثنى ... إليّ ببِشرٍ آنستني مخايله
دَنوتُ فقبّلتُ النّدى من يد امرئٍ ... جميلٍ مُحيّاه سِباطٍ أناملُهْ
صَفَتْ مثلَ ما تصفو المُدام خِلالُه ... ورَقّتْ كما رَقّ النسيمُ شمائله
فقلت إلى المُعلي إلى المجد طرفَه ... دع المجدَ فالفتحُ بنُ خاقان شاغله

اللاذعة وبمزج الهَزْل بالجد إلى جانب اتصافه بالطبـع بالصرامـة والحـزم الفـكري والعنف . كما عرف بالإنغماس في المفارقات والتناقضات وبالمبالغة والتهويل والقدرة العجيبة على تصغير الشيء العظيم حتى يراه المرء ضئيلاً تافهاً متخاذلاً وعلى تعظيم الشيء الصغير حتى يراه المرء عظيماً عملاقاً مع قدرة منطقية تبريره على الإحتجـاج للشيء ولنقيضه . وقد ظهر ذلك بوضوح في كتـاب البخـلاء وفي رسالـة التـربيع والتدور كما سنرى . أما خفة روحه فتبدو في جميع مؤلفاته التي أطلعنا عليها وفي تصرفاته أيضاً . قال أبو العيناء « كان لي صديق . فجاءني يومـاً فقـال لي : أريد الخروج إلى فلان العامل وأحببتُ أن يكون معي اليه وسيلة . وقد سألتُ مَنْ صديقه فقيل لي أبو عثمان الجاحظ وهو صديقك وأُحِبُّ أن تأخذ لي كتابه إليه بالعناية بي . » قال أبو العيناء « فصرت الى الجاحظ فقلت له جئتك مسلّماً وقاضياً للحق ولي حاجة لبعض أصدقائي وهي كذا وكذا . فقال لا تشغلنا الساعة عن المحادثة . . . إذا كان في غد وجَّهـتُ اليك بالكتـاب إلى فلان ففيه حاجتـه . فلما كان في غد وجَّـه إليَّ بالكتاب . فقلت لابني وَجِّه هذا الكتاب إلى فلان ففيه حاجته . فقال لي : إن أبا عثمان بعيد الغور ينبغي أن نفُضَّ الكتاب وننظر ما فيه . ففعل . فإذا في الكتاب : « هذا الكتاب مع مَنْ لا أعرفه . وقد كلَّمني فيه من أوجـب حقـه . فإن قضيتَ حاجته لم أحمدك . وإن رددتـه لم أذمـك » . فمضيتُ إلى الجاحـظ من فوري . فقال : « يا أبا عبدالله قد علمتُ أنك أنكرتَ ما في الكتاب » . فقلت : أو ليس هو موضع نُكْر !!! قال لا . هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن أعتني به . فقلت : لا آله إلاّ الله !! ما رأيت أحداً بطبعك ولا ما جُبلتَ عليه . » وحادثة طريفة أخرى تدل على خفة روح الجاحظ مفادها : إن الجاحظ استأذن على أحـد الأمـراء ومعـه الشكّاك وهو أحد المتكلّمين . فقال الخادم لمولاه : الجاحد والشـكّاك في البـاب . فقال الأمير : « هذان من الزنادقة لا محالة » . فصاح الجاحظ ويحك !!! ارجع وقل لسيدك : الحدَاقي في الباب ـ والحَدَاقى من ألقاب الجاحظ المعروفة ـ . فقال الخادم لسيده : « الحَلَقي في الباب » . فصاح الجاحظ : ويلك !!! ارجع إلى الجاحد .

- ١١ -

وعُرف الجاحظ أيضاً ببراعته في انتقاء الشعر وبتعاطيه فقد قال يوماً « طلبتُ علم الشعر عند الأصمعي فوجدتُـه لا يحُسـن إلاّ غريبة . فرجعـت إلى الأخفش فوجدته لا يتقنُ إلاّ إعرابه . فعطفتُ على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلاّ ما اتصل

بالأخبار وتعلّق بالأيام والأنساب . فلم أظفرَ بما أردتُ إلاّ عند أدباء الكتاب كالحسن بن وَهْب ومحمد بن عبد الملك الزيات. » وقد أورد ياقوت في معجم الأدباء نماذج من شعر الجاحظ منها في مدح أحمد بن أبي دؤاد :

وعـويصٌ من الأمـور بهيمٌ غـامضُ الشـخص مظلـمٌ مستورُ
قد تَسنَّمـتَ ما توعَّـر منه بلسـانٍ يُزينـه التحبير
مثْـلُ وشـي البـرود حلَّـله النَّسْـجُ وعنـد الحِجَـاج درٌ نثير
حَسَـنُ الصمـت والمقاطـع إمَّا نَصَـتَ القـومُ والحـديث يدور
ثم من بعـد لحظـة قدرت اليُسـر وعِـرضٌ مهـذَّب موفور
لا ترانـي وان تطاولـتُ عمداً بين صَفَيْهـم وأنـت تسير
كلُّهـم فاضـل علـيَّ بمال ولسانـي يُزينـه التحبير
فاذا ضمَّنـا الحـديث وبيتٌ وكأنّـي علـى الجميـع أمـير
رُبَّ خصـم أرَقّ من كل روح ولفـرط الـذكاء يكاد يطير
فاذا رام غايتـي فهـو كابٍ وعلـى البُعْـد كوكبٌ مبهور

وقال في أبي الفرج نجاح بن سلمة يسأله اطلاق رزقه :

أقـام بدار انخَفْض راضٍ بخفضه وذو الحزم يسري حين لا أحَدٌ يسري
جَزعْتُ فلم أعْتِبْ فلـو كنـتُ ذاحِجاً لَقَنَّعـتُ نفسـي بالقليل من الوَفْر
سواءٌ علـى الأيام صاحـبُ حِنْكَة وآخـرُ كاب لا يَريش ولا يبري
يَظُـنُّ الرِّضـى شيئـاً يسيراً مهوَّناً ودون الرِّضـى كأسٌ أمرُّ من الصَّبر
خَضعـتُ لبعض القـوم أرجـو نواله وقـد كنـتُ لا أعطي الـدَّنِيَّةَ بالقَسْر
فلمَّـا رأيتُ المـرءَ يبـذُل بِشْرَه وبجعـل حُسْـنَ البِشْـر وافيةَ الوَفْر
رَبعْتُ علـى ظَلْعي وراجعتُ منزلي فصِـرتُ حليفـاً للدراسـة والفكر
وشـاورتُ اخوانـي فقـال حليمهم عليك الفتى المُرِّيُّ ذا الخُلُق الغَمْر
فتـى لم يقف في الدهـر موقفْ ظِنَّة فيحتـاج فيه للتنصُّـل والعُذْر
أُعيذك بالرحمـن من قول شامت أبـو الفَرَج المأمول بزهـد في عمرو
ولـو كان فيه راغبـاً لرأيته كما كان دهـراً في الرخـاء وفي اليُسر
أخـاف عليك العين من كل حاسد وذو الـودِّ فخـورُ الفـؤاد من الذُعْر
فإن تَرْعَ وُدِّي بالقبـول فأهلُه ولا يعـرف الأقـدار غيرُ ذوي القدر

ألا يا فتى الكتّاب والعسكر الذي — تآزر بالحُسنى وأيّدَ بالنصر
وعهدي به والله يُرشد أمره — ويحفظه في القاطنين وفي السَّفر
مُطلاً على التحديد ما يَستفِزُّه — مكايدُ محتالٍ عقاربه تسري
برأيٍ يُزيل الطَّوْءَ عن مستقره — وأوضحُ عند الخصم في واضح الفجر
وعزمٍ كغَرْبِ المشرَفيِّ مصمّمٍ — وقلبٍ ربيطِ الجأش منثلِجِ الصدر
فيا ابن نجاحٍ أنجحَ الله سعيكم — وأيّدكم بالنصر والعود الدَّثْر
قَعدْتُ فلم أطلبْ وجلتُ فلم أُصِبْ — خليلاً يواسيني ورغب في شكري
وإنْ أخفَقتْ كفّي وقدْ علقتكُم — فقد صابَ رأيي واستنمتُ الى شعري
أُعيذُك بالرحمن أن تُشمِتَ العدى — فلَلْفقرُ خيرٌ من شماتة ذي الغُمْر

وذكر أبو العيناء : قال حدّثني ابراهيم بن رباح قال . أنشدني الجاحظ يمدحني :

بَدَا حين أَزْرَى بإخوانه — فقَلَّلَ عنهم شَباةَ القَدَمْ
وذكّره الحزم رَيْبَ الزمان — فبادر بالعُرْف قبل النَّدَمْ

ثم استطرد ابراهيم فقال فذاكرتُ بهما أحمد بن أبي دؤاد فقال أنشدنيهما الجاحظ في مدحي . ثم لَقِيتُ محمد بن الجَهْم فقال أنشدنيهما الجاحظ يمدحني بهما .

ومما يروى ـ بمناسبة الحديث عن شعر الجاحظ ـ على ما ذكر ابن خلكان [وفيات الأعيان ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤] : « ان أحد أولاد البرامكة انحدر الى البصرة من السند وعلم بمرض الجاحظ وأحبَّ أن يراه قبل وفاته . قال البرمكي : فأفضيتُ الى باب لطيف فقرعته فخرجت إليَّ جارية فقالت من أنت ؟ قلت رجل غريب وأحبُّ أن أسرَّ بالنظر إلى الشيخ . فبلّغته ما قلت . فسمعته يقول قولي له : وما يصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل !!! . . . فقلتُ للجارية لا بد من الوصول إليه . فلما بلّغته قال : هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع بعلّتي فقال أحبُّ أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ . ثم أذن لي فدخلت وسلّمت فردَّ ردّاً جميلاً . وقال مَنْ تكون أعزّكَ الله ؟ فانتسبت له فقال رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السُّمحاء الأجواء . فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة ولقد انجبر بهم خلق كثير فسُقياً لهم ورَعْياً . . . فدعوتُ له وقلت أسألك أن تُنشدني شيئاً من شعرك فأنشدني :

لئن قُدِّمتْ قبلي رجالٌ فطالما مَشيتُ على رِسْلي فكنتُ المُقدَّما
ولكنَّ هذا الدَّهر تأبى صروفه فتُبرم منقوضاً وتُنقض مُبرما

وما دمنا بصدد التحدث عن موقف الجاحظ من الشعر فانه من الطريف أن نشير هنا الى ما ذكره الجاحظ في كتاب البيان والتبيين [ج ١ ص ١٤٦ ـ ١٤٧] : « ان اللَحْن يجوز للجواري الظِراف والكواعب النواهد . وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلُّف . وقد قال مالك بن اسماء في استملاح اللحن :

وحديث ألَذُّه هو مِمَّا تشتهيه النفوس يُوزَن وَزْنا
منطقٌ صائبٌ وتَلْحَن احياناً فأوخَرُ الكلام ما كان لَحْنا

كذا فهم الجاحظ في بيت مالك أنه أراد باللحن الخطأ في الكلام في حين ان : لَحَنَ الرجل يَلْحَن لَحْناً فهو لاحن إذا أخطأ . ولَحِن يلحَن لَحَناً فهو لَحِن إذا أصاب وفطن . ومالك في قوله « وتلحن أحياناً » يعني أنها تُعرِّض في حديثها فتزيله عن جهته لئلا يفهمه الحاضرون . وقوله « وخير الكلام ما كان لَحَناً » أي خير الحديث ما فهمه صاحبك الذي تحب إفهامه وحده وخَفِيَ على غيره : لَحناً أي إصابةً وفِطْنَة قال تعالى « ولَتعرِفَنَّهم في لَحْن القول » ولم يرد الخطأ في الكلام . والخطأ لا يُستحسن من أحد . وعندما عوتب الجاحظ في ذلك . وجَمَ ساعة ثم قال : « لو سَقَط إليَّ هذا الخبر لَما قلت ما تقدم . فقيل له فأصلحه . فقال الآن !!! وقد سار الكتاب في الآفاق !!! هذا لا يصلح . » ومن الطريف أن نشير [ونحن نختتم هذا الجانب من جوانب البحث] الى أن بديع الزمان الهَمَذاني وضع مقامة خاصة سماها المقامة الجاحظية بيَّن فيها موقفه من شعر الجاحظ . قال البديع « حَدَّثنا عيسى بن هشام قال جمعتني مع رِفْقَة وليمة . . . عكَفْنا على خِوان قد مُلِئتْ حياضُه ونوِّرت رياضه واصطفت جفانه واختلفت ألوانه . . . ومعنا على الطعام رجل تُسافر يده على الخِوان وتُسْفِر بين الألوان وتأخذ وجوه الرُغْفان وتَفقأ عين الجفاذ وترعى أرض الجيران . يَزْحُم اللُّقمَة باللقمة ويهزِم المُضْغَة بالمُضْغَة . وهو مع ذلك ساكتٌ لا يَنبس . . . ونحن في الحديث نجري معه حتى وقف بنا على الجاحظ وخطابته . . ووافق أول الحديث آخر الخِوان . وزُلنا عن ذلك المكان . فقال الرجل أين أنتم من الحديث الذي كنتم فيه !ـ فأخذنا في وصف الجاحظ ولَسَنه وحُسن سُنَنه في

الفصاحة وسُنَّته فيما عرفناه . فقال : يا قوم لكل عمل رجال ولكل مقام مقال ولكل دار زمان ولكل زمان جاحظ . . . إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يَقْطِف وفي الآخر يقف . والبليغ من لم يُقصرّ نظمه عن نثره . فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا: لا . قال : فهلموا الى كلامه فهو بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الإستعارات . . . فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة؟ أو لفظة غير مصنوعة؟ »

- ١٢ -

كنا لحد الآن نتحدث عن الجوانب السايكولوجية والإجتماعية لشخصية الجاحظ لارتباطها بأدبه الذي هو انعكاساً عنها بعد التحليل الدقيق ولم نمس إلاَّ عَرَضاً وضمنياً ونادراً الجوانب السايكولوجية في أدبه وهي جوهر بحثنا هذا . ونود الآن ـ قبل الدخول في صميم الموضوع ـ أن نشير [استكمالاً للبحث ولإعطاء صورة متكاملة عن محتوى أدب الجاحظ] الى ملاحظات تربوية وعلمية صائبة أبداها الجاحظ استطراداً في سياق تناوله موضوعات أُخَرْ :

أولاً : الملاحظات التربوية : ذكر الجاحظ بصدد العلاقة بين النظرية والتطبيق وأهمية الاستنباط أو الإستدلال والتميز بين المهم وغير المهم ـ وهو مبدأ تربوي حديث من الناحية التاريخية ـ ما نصه [كتاب البيان والتبيين ج٥ ص ١٢٥] « ولولا استعمال المعرفة لَما كان للمعرفة معنى . كما أنه لولا الإستدلال بالأدلة لَما كان لوضع الدلالة معنى . . . والإنسان الحسَّاس ـ إذا كانت الأمور مميَّزة عنده ـ أخذ ما يحتاج اليه وترك ما يستغني عنه . » وأشار الجاحظ الى المعنى نفسه بشيء من الإيضاح والتبسيط فقال [المصدر نفسه ج٢ ص ٩٦ ـ ٩٧] « ومن الناس من يقول أن العيش كله في كثرة المال وصحة البدن وخمول الذكر . وقال من يخالفه : لا يخلو صاحب البدن الصحيح والمال الكثير من أن يكون بالأمور عالماً أو يكون بها جاهلاً . . . فان كان بها عالماً فعلمه بها لا يتركه حتى يكون له بالقول والعمل حسب علمه لأن المعرفة لا تكون كعدمها لأنها لو كانت موجودة غير عاملة لكانت المعرفة كعدمها . وفي القول والعمل ما أوجب النباهة . وأدنى حالاته أن تخرُجه من حد الخمول . ومتى أخرجته من حد الخمول فقد صار معرَّضاً لمن يعدل سبيله . وكما ان المعرفة لا بد لها من عمل ولا بد للعمل من أن يكون قولاً وفعلاً . والقول لا يكون قولاً إلاَّ وهناك مقول له . وفي ذلك ما أخرج من الخمول وعُرِف به الفاعل . » وكتب الجاحظ بصدد موقف الأم

الجاهلة من الطفل العبارات الطريفة التالية : [المصدر نفسه ج٦ ص ٢٨٧] « إن الصبي يبكي بكاء شديداً متعباً موجعاً . فإذا كانت الأم جاهلة حَرَّكته في المهد حركة تُورثه الدّوار . أو تنوِّمه بأن تضرب يدها على جبينه . ومتى نام الصبي وتلك الفزعة أو اللوعة أو المكروه قائم في جوفه ولم يُعلَّل ببعض ما يُلهيه ويُضحكه ويسره حتى يكون نومه على سرور فيسري فيه ويعمل في طباعه ولا يكون نومه على غم أو فزع أو غيظ فان ذلك يعمل الفساد . » وقال الجاحظ أيضاً « والعقل - جُعلتُ فداك - أطولُ رَقْدَةً من العين وأحوج الى الشحذ من السيف وأفقر إلى التعهد وأسرع الى التغيرّ . وادواؤه وأطباؤه أقلّ . وعلاجه أعْضل . فمَنْ تداركه قبل التفاقم أدرك أكثر حاجته . ومن رامه بعد التفاقم لم يُدرك شيئاً من حاجته . ومِنْ أكْبر أسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفته وجوه المطالب . ثم في الخواطر الغثّ والسمين والفاسد والصحيح والمسرع اليك والبطيء عنك والدقيق الذي لا يكاد يُفْهَم والجليل الذي لا يلغى الفهم . »

ثانياً : الملاحظات العلمية : ذكر الجاحظ أن الصمم الذي يعتري الطفل لا يحصل بالضرورة بفعل نقص في النطق « لشيء في لسانه . ولكنه أُتي في ذلك لأنه حين لم يسمع صوتاً قط - مؤلَّفاً أو غير مؤلَّف - لم يعرف كيفيته فيقصد اليه . » [كتاب الحيوان ج ٤ ص ٤٠٤] . وقال الجاحظ يصدر تخلُّف سماع صوت الرعد عن رؤية البرق [المصدر نفسه ص ٤٠٨] « ومتى رأيت البرق سمعت الرعد بعده . والرعد يكون في الأصل قبله ولكن الصوت لا يصل اليك في سرعة البرق . » وذكر الجاحظ في تعليل اختلاف لون بشرة الزنوج النص التالي المرتبط بأثر البيئة الطبيعية في ذلك : « إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً . . ولكن البلد فعل ذلك . والحُجَّة في ذلك أن في العرب سوداً كبني سُلَيْم بن منصور وكل من نزل الحرَّة من غير بني سُلَيْم كلهم سود . . . ولقد بلغ من أمر تلك الحَرَّة ان ظباءها وخيلها وهوامها ونعامها وذبابها وثعالبها وشاءها وحميرها وخيلها وطيرها كلها سود . » وذكر الجاحظ أيضاً أموراً أُخَر طريفة ساقته اليها ملاحظاته الدقيقة ولكنه أخطأ في تفسيرها لعوامل موضوعية لا سيطرة له عليها بالنسبة لظروفه العلمية آنذاك . منها مثلاً : [كتاب الحيوان ج ٤ ص ٧١٧] « لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم . فيعمل ذلك في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع بلاد ياجوج وماجوج . وترى القَمْلَة في رأس الشباب الأسود الشعر سوداء . وتراها في

رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء . وتراها في رأس الأشمط شمطاء وهي في لون الجمل الأورق ، فاذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء فان نصل خضابه صار فيها شكله من بين بيض وحمر . » وكتب الجاحظ أيضاً [رسالة التربيع والتدوير ص ٨٦] « أنا ـ جُعلتُ فداك ـ أعلم اني أسمع ولا أعقل كيفية السمع . وأعلم أني أبصر ولا أعقل كيفية البصر . ولا أدري أمَعدِنُ العقل الدِّماغ . . . أم معدن العقل القلب دون الدماغ !! . . . ولعلهما موصولان غير مقطوعين . » وكتب الجاحظ أيضاً « ولعمري ان العيون لتخطيء وأن الحواس لتكذب وما الحكم القاطع إلاّ للذهن والاستبانة الصحيحة إلاّ للعقل . »

وأبدى الجاحظ ملاحظات في غاية الأهمية ترتبط بظاهرة النشوء والإرتقاء [كتاب الدلائل والإعتبار على الخلق والتدبير ص ٢٦ ـ ٢٧] « فالإنْس ـ لمّا قُدِّرَ أن يكونوا ذوي ذهن وفِطْنَة وعلاج لمثل هذه الصناعات في البناء والنجارة والحياكة والجزارة وما أشبه ذلك ـ خُلِقَتْ لهم أكُفّ كبار ذوات أصابع غلاظ تتمكن من القبض على الأشياء ومزاولة هذه الصناعات . وآكلات اللحم ـ لمّا قُدِّرَ أن يكون معاشها من الصيد ـ خُلِقَتْ لها أكُفّ لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لأخذ الصيد ولا تصلح للصناعات . وآكلات النبات ـ لمّا قُدِّر أن تكون لا ذات صنعة ولا ذات صيد ـ خُلقت لبعضها أظلاف تقيها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى ولبعضها حوافر ململمة ذوات قعر كأخمص القدم يطبق الى الأرض ويتهيأ للركوب والحمولة . تأمَّل التدبير في خلقة آكلة اللحم من الحيوان حين جُعلت ذوات أسنان حِراء وبراثن شِداء وأفواه واسعة فإنه لمّا قُدِّر أن يكون طعامها اللحم خُلقت خِلْقَةً تُشاكل ذلك وأُعينتْ بسلاح وأدوات تصلح للصيد . فكذلك نجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيّأة لفعلها . ولو كانت ذوات مخالب لكانت قد أُعطيتْ ما لا تحتاج اليه لأنها لا تصيد ولا تأكل اللحم . ولو كان السباع ذات أظلاف لكانت قد مُنعت ما تحتاج اليه : أعني السلاح الذي به تصيد وتتعيَّش . ألا ترى كيف أُعطي كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنعته وطبيعته بل ما فيه بقاؤه وصلاحه !!! أنظر الى أولاد ذوات الأربع كيف تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها لا تحتاج الى الحمل والتربية كما تحتاج أولاد الإنْس . فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من الترفُّق والعلم والتربية والقوة . . . أُعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها . » ثم يقول الجاحظ [المصدر نفسه ص ٢٩ ـ ٣٠] « أنظر الى هذه البهائم كيف كُسِيَتْ أجسامها هذه

الكسوة من الشعر والوبر لتقيها من البرد وكثير من الآفات . وألبست قوائمها الأظلاف والحوافر لتقيها من الحفا . فانها لمّا كانت بهائم ولا أذهان لها ولا أكُفّ ولا أصابع مهيّأة للغزل والنسج كُفيت ذلك بأن جُعلت كسوتها في خَلْقها باقية عليها ما بقيت ولا تحتاج إلى تجديدها ولا استبدالها . فأمّا الانسان فهو ذو حيلة وكفّ مهيّأة للعمل فهو يغزل وينسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال . »

تلك قضايا فكرية عامة قد تبدو لأول وهلة كأنها غير ذات ارتباط بالجوانب السايكولوجية لأدب الجاحظ وإن كان بعضها ـ بنظرنا ـ مرتبطاً ارتباطاً غير مباشر بموضوع البحث . ومع ذلك فان الغرض الأساسي من تطرقنا اليها ليس هو في الأصل تفسير جوانبها السايكولوجية بقدر ما هو ـ كما بينا ـ اعطاء صورة متكاملة للجاحظ الأديب والمفكر الفذ .

ـ ١٣ ـ

أما الجوانب السايكولوجية لأدب الجاحظ فتبدو بأوضح اشكالها ـ كما بيّنا ـ في كتاب البخلاء وفي رسالة التربيع والتدوير ورسالة القيان وفي الأقسام المتبقية من كتاب اللصوص المفقود . والجوانب السايكولوجية المشار اليها تعبّر عن نفسها في التحليل الشامل العميق للظواهر الإجتماعية التي يتناولها الجاحظ بالبحث وفي قدرته العجيبة على التغلغل في النفس البشرية . وقد اتضحت تلك الجوانب السايكولوجية بأحلى صورها في النواحي السبع التالية المترابطة والمتبادلة الأثر : أولاً : الناحية الديالكتيكية أو جدلية التفكير عنده . ثانياً : وناحية الإحاطة أو الالمام الواسع العميق بالشيء من جوانبه المتعددة . وثالثاً : ناحية الاستطراد . ورابعاً : ناحية عنف المشاعر والتهكم اللاذع الذي يبلغ حد الافراط أحياناً . وخامساً : ناحية المبالغة والتهويل . وسادساً : ناحية مزج الهَزْل بالجد . وسابعاً : ناحية الظُرف والدُعابة . وبما أن بعض تلك النواحي يمزج ببعض آخر الى درجة الذوبان أو الانصهار فسوف نشير إليه إشارات ضمنية .

أولاً : الناحية الديالكتيكية في تفكير الجاحظ :

نقصد بالناحية الديالكتيكية في تفكير الجاحظ نظرته المستوعبة الى الشيء أو الشخص أو الظاهرة من زاويتين متنافرتين وتجسيد مجمل النواحي السلبية والايجابية

ومحاولة التوفيق بينها باعتبارها أجزاء مترابطة في وحدة متماسكة : « وحدة النقيضين » بعبارة فلسفية . وقد وردت الناحية الديالكتيكية المشار إليها حتى في عناوين بعض مؤلفاته « الجد والهزْل » « العداوة والحسد » « التربيع والتدوير » « البيضان والسودان » . كما وردت تلك الناحية الديالكتيكية في تفسيره طبيعة الانسان والقيم الأخلاقية والعلاقات الاجتماعية السائدة كما سنرى . وفي هذا التفكير الديالكتيكي يكمن جوهر نظرة الجاحظ السايكولوجية العميقة إلى كثير من قضايا الفرد والمجتمع [في مجتمعه وعصره] وفي هذا العصر الذي نعيش فيه . وبما أننا نتحدث في مهرجان مقام لتكريم الجاحظ فسوف نتحاشى ذكر كل ما من شأنه الإساءة الى الجاحظ وهو كثير احتراماً لهذه المناسبة الكريمة . وسوف نترك الجاحظ نفسه يتكلم بصورة مباشرة الى السامع بعباراته الرشيقة الواضحة التي لا تحتاج الى تعليق أو تبسيط .

كتب الجاحظ بصدد تفسير طبيعة الانسان المتناقضة العبارات التالية [كتاب الحيوان ج ٦ ص ٢١٤] « ألا ترى ان فيه طبائع الغضب والرضا . دآلة اليقين والشك . . . وفيه طبائع الفطنة والغباوة . والسلامة والمكر . والنصيحة والغش . والوفاء والغدر . والرياء والاخلاص . والحب والبغض . والجد والهَزْل . والبخل والجود . والاقتصاد والسَّرف . والتواضع والكِبر . والأُنس والوحشة . والتمييز والخبط . والجُبن والشّجاعة . والحَزْم والإضاعة . والتبذُّل والتعزُّر . والسَّخط والرِّضا . والصبر والجَزَع . والذِّكر والنسيان . . . والكِتمان والإشاعة . والإقرار والأفكار . والعلم والجهل . والظلم والانصاف . . . والتغافل والتغاضي . وما لا يمكن عده!!! » وقال الجاحظ أيضاً [المصدر نفسه ج٦ ص ٢١٣] : « إنما سحر الانسان العالم الصغير سليل العالم الكبير لِمَا وجدوا فيه من جميع أشكال العالم الكبير . . ووجدنا فيه الحواس الخمس ووجدوا فيه المحسوسات الخمس . . . ووجدوه بأكل اللحم والحَبّ ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسَّبُع . ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد وغدر الذئب وروغان الثعلب!! وقال أيضاً [كتاب البيان والتبيين ج١ ص ٢١٨] « وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام . وتكون له طبيعة في النجارة وليست له طبيعة في الفلاحة . وتكون له طبيعته في الحداء أو التعبير أو في القراءة بالالحان وليست له طبيعة في الغناء » . وقال أيضاً [فلسفة الجد والهزل ص ١٢ ـ ١٤] « فمن الأمور التي توجب بعضها بعضاً : المنفعة توجب المحبة . والمضرة توجب البغضاء . . . والصدق يوجب الثقة والكذب

يورث التهمة . والأمانة توجب الطمأنينة . والعدل يوجب اجتماع القلوب . . والجَورْ يوجب الفُرقة . وحسن الخلق يوجب المودّة . وسوء الخلق يوجب المباعدة . والانبساط يوجب المؤانسة . والانقباض يوجب الوحشة . والكِبر يوجب المقت . والتواضع يوجب المِقَة . ولكل شيء من هذه افراط وتقصير . وإنما تصبح نتائجها اذا أنميت على حدودها . فالافراط في الجود يوجب التبذير . والإفراط في التواضع يورث المذلَّة . . . والافراط في الكِبر يدعو الى مقت الخاصة . والافراط في المؤانسة يدعو الى خُلطاء السوء . والإفراط في الإنقباض يوحش النصيحة . . واعلم ان الصَّمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة غرضه . . . واعلم أن كثرة العتاب سبب للقطيعة . واطّراحه كله دليل على قلة الاكتراث . . واقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب بالمهابة ويُجرِّيء عليك أهل الدناءة . وإن التقصير فيه يقبض عنك المؤانسة . . واجعل صمتك أكثر من كلامك فانه أدَلُّ على حكمتك . واجعل عفوك أكثر من عقوبتك فان ذلك أدَلُّ على كرمك . ولا تُفْرِطَنَّ فيه كل الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه والتأديب في أداته . . . واعلم ان نشر محاسنك لا يليق بك ولا يُقبل منك . . فأما ثناء المادحين لك في وجهك فإنما ذلك أسواق أقاموها للارباح وساهلوك في المبايعة . . . وعندما تأتي محفلاً فيه جمع من الناس فاجلس دون الموضع الذي تستحقه حتى يكون أهله الذين يرفعونك فتظهر جلالتك وعظم قدرك . وعندما يفيض القوم في حديث عندك فيه مثل ما عندهم أو أفضل فيتنافسون في إظهار ما عندهم فإنْ ناقشتهم كنت واحداً منهم وإن أمسكتَ افتضوك في ذلك فصرت كأنك ممتنٌ عليهم بحديثك وانصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك . »

والجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ - وفي سلوكه كما سنرى - يعبِّر عن نفسه أثناء موازنته بين خطباء العرب وخطباء الأمم الأخرى فخطباء العرب مبتكرون مجرِّدون وخطباء غيرهم تابعون مفكرون :

[كتاب البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧] « وجملة القول : إنَّا لا نعرف الخُطَب إلاّ للعرب . . . إلاّ ان كل كلام لغيرهم إنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي وطول خلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكير ودراسة الكتب وحكاية الثاني عِلْمَ الأول وزيادة الثالث في علم الثاني . حتى اجتمعت ثمار تلك الفِكَر عند آخرهم . وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال كأنه الهام . وليست هناك معاناة ولا مكابرة

ولا اجالة فكر ولا استعانة . » كما عبَّر الجانب الديالكتيكي المشار اليه عن نفسه أيضاً في تفكير الجاحظ أثناء تحليله بعض الظواهر الاجتماعية السائدة آنذاك : فكتب الى بعض معارفه [العِقد الفريد ج٢ ص ١٦٦ ـ ١٦٧] يذم الزمان « كتبتُ اليك وحالي حال من كُشِفَتْ همومه وأشكلت عليه أموره. . . وقَلَّ عنده من يثق بوفائـه. . . لاستحالة زماننا وفساد ايامنا ودولة أنذالنا . . . فوجدنا الجاهَ متصلاً بالحرمان . والصدقَ آفةً على المال . . . إذ صارت الخُطْوَة. . . في لؤم النِّيَّة . وتناولُ الزرف من جهة محاشاة الوقار وملابسة مَعرَّة العار . . . ووجدنا مَنْ فيه السَّفولية الواضحة والمثالب الفاضحة . . والجهالة المفرطة . . . وسرعة الغضب والخِفَّة قد استكمل سروره واعتدلت أموره وفاز بالسهم الأغلب والحظ الأوفر والقدر الرفيع والجواب الطائع والأمر النافذ . إنْ زَلَّ قيل حكَمُ وإن أخطأ قيل أصاب . . . ثم نظرنا الى الوفاء والأمانة والنُّبل والبراعة وحُسْن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة والفائق في سعة علمه والحاكم على نفسه والغالب لهواه فوجدنا فلان بن فلان . ثم وجدنا الزمان لم يُنصفه من حقه ولا قام له بوظائف فرضه . ووجدنا فضائله القائمة قاعدة به . ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان ومعرِباً عن الأيام حيث يقول:

تَحامَقْ مع الحَمْقَى إذا ما لقيتَهم ... ولاقِهمُ بالجهل فِعْلَ أخي الجهلِ
وخَلِّطْ إذا لاقيتَ يوماً مخلِطاً ... يُخلِّط في قول صحيح وفي هَزْل
فأني رأيت المرء يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يَسْعَدِ بالعقل

ـ وقد ورد صدى ذلك عند المتنبي وفي مقامات البديع والحريري ـ .

ومن الطريف أيضاً أن يشار هنا إلى أن الجانب الديالكتيكي هذا قد ظهر أيضاً في موقف المفكرين من الجاحظ . فقد قال بعضهم فيه ـ كما ذكرنا ـ « كُتُبُ الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ». وذهب آخرون إلى الجهة المعاكسة . كما رأينا في مقامة البديع الجاحظية وفي قول الباقلاني في [إعجاز القرآن ص ٣٧٧] : « وكذلك يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السِّمن الذي لا يُؤخَذ فيه والباب الذي لا يُذهَب عنه . وأنت تجد قوماً يرون كلامه من بيت سائر ومَثَل نادر وحكمة ممهَّدة منقولة وقصة عجيبة مأثورة . وأمَّا كلامه ـ في أثناء ذلك ـ فسطور قليلة وألفاظ يسيرة . فإذا أُحْوِجَ الى تطويل الكلام خالياً من شيء يستعين به فيخلط بقوله قول

غيره . . . ومن ذكر من كلامه سطراً أتبعه من كلام غيره أوراقاً . . . » واتضح الجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ في جمعه بين الرقة والصرامة وبين الهَزْل والجد وبين تضخيم الشيء وتصغيره . وما يجري هذا المجرى .

والجاحظ يسترسل في منطقه الديالكتيكي الذي يحمل نظرات سايكولوجية عميقة في تحليل طبيعة الانسان من الناحية الإجتماعية وفي تفسير جوهر العلاقات الاجتماعية السائدة بين الناس . ونظراته المشار اليها مستمدة في الأصل من قراءاته الكثيرة ومن خبرته الخاصة في شؤون الناس ومن تحليله حالاته النفسية ذاتها فقد كتب الجاحظ مثلاً في معرض تحليل السياسات العامة للحكام في عصر . [كتاب الحيوان ج٢ ص ٨٧] . وبَعْدُ فإيُّ رئيس كان خيره محضاً ؟ . . . ومَنْ لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة؟ وقُتِلَ في موضع القتل وأُحيا في موضع الإحياء ؟ وعفا في موضع العفو وعاقب في موضع العقوبة ومنع ساعة المنع وأعطى ساعة الإعطاء ؟ وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع . وبعض العفو إغراء . . . كما أن بعض المنع إعطاء . ولا خير بمن كان خيره محضاً . . . وشرٌّ منه من كان شره صرفاً . ولكن اخلِطِ الوعد بالوعيد . والبِشْرْ بالعُبوس . والإعطاء بالمنع . والحِلْم بالإيقاع . فان الناس لا يهابون ولا يُصْلَحون إلاَّ على الثواب والعقاب والإطماع والمنع . . . ومَنْ أخاف ولم يوقع وعُرِف بذلك كان كمن أطمع ولم يُنجز وعُرِف بذلك . » ولولا الاستطراد لاقتبسنا فقرات مماثلة من كتاب « الأمير » الذي وضعه مكيافيلي [١٤٦٩ - ١٥٢٧] الذي جاء بعد الجاحظ بأكثر من ستة قرون . وكتب الجاحظ أيضاً في معنى مماثل [رسالة المعاش والمعاد والأخلاق المحدودة ، والمذمومة التي بعث بها الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد : رسائل الجاحظ / مطبعة الخانجي / ١٩٦٢ ج١ ص ١٠٢ - ١٠٥] :

« اعلم أن الله - جلَّ ثناؤه - خلق خلقه ثم طبعهم على اجتذاب المنافع ودفع المضار وبُغْض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبع مركّب وجبلة مفطورة لا خلاف بين الخلق فيه : موجود في الإنس والحيوان . . . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء . . . فالرغبة والرهبة أصلاً كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عَظَمت أو صَغُرت . فاجعلها مثالك الذي تحتذي به وركنك الذي تستند اليه . . . واعرف لأهل البلاء - ممن جَرَتْ بينك وبينه مودةٌ أو حُرمة ممن فوقك أو دونك أو نظرائك - أقدارهم ومنازلهم . ثم لتكن أمورك معهم على قدر البلاء والاستحقاق .

ولا تؤثر في ذلك أحداً لهوىً فان الاثرة على الهوى توجب السخْط . . . أمَّا مَنْ آثرتَ فإنه يعلم أنك لم تؤثره باستحقاق بل لهوى فهو يترقَّب أن ينتقل هواك الى غيره فتتحوَّل إثْرتك حيث مال هواك . فهو مدخول القلب في مَودَّتك غير آمن لتغيُّرك . . . وأمَّا مَنْ آثرتْ عليه بعد الاستحقاق منه فقد جعلتَ له السبيل الى الطعن عليك وأعطيتَه الحُجَّة على نفسك . . . فاجعل العدل والنَّصف في الثواب والعقاب حاكماً بينك وبين اخوانك . فمَنْ قَدَّمتَ منهم فَقَدِّمْه على الاستحقاق » .

وقال الجاحظ أيضاً في معرض الإطراء على الفتح بن خاقان والتنديد بخصوم الدولة وبالمعارضين لسياستها دون وجه حق بنظره : [رسائل الجاحظ / مكتبة الخانجي / ١٩٦٤ / الجزء الأول ص ٦ ـ ٧] « وقد أعجبني ما رأيتُ من شَغَفك بطاعة إمامك والمحاماة لتدبير خليفتك وإشغافك من كل خلل وخلِة دَخَلَ على ملكه وإن دَقَّ ونال من سلطانه وإن صغر ومن كل أمر خالفه وإن خفي مكانه وجانب رضاه وإن قَلَّ ضرره ومِنْ تخوُّفك أن يجد المتأوِّل اليه طريقاً والعدو عليه متعلَّقاً . فان السلطان لا يخلو من متأوِّل ناقم ومن محكوم عليه ساخط ومن معدول عن الحكم زارٍ ومن متعطِّل متصفِّح ومن مُعجَب برأيه ذي خَطَل في بيانه مولع بتهجين الصواب . . حتى كأنه رائد لجميع الأمة ووكيل لسكان جميع المملكة . . يضع نفسه في موضع الرقباء وفي موضع التَّصفُّح على الخلفاء والوزراء . . . ومن محروم قد أضْعَفَه الحرمان ومن لئيم قد أفسده الاحسان ومن مستبطىءقد أخذ أضعاف حقه وهو ـ لجهله بقدره ولضيق ذَرْعه وقلَّة شكره ـ يظُنُّ أن الذي بقي له أكثر . . . ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ونِعَمه السالفة عليه لكان لذلك أهلاً . . . وله مستحقاً . . . ومن صاحب فتنة خامل في الجماعة رئيس في الغُرفة نفَّاق في الهَرَج قد أقصاه السلطان . . . فهو مُغيظ لا يجد غير التشنيع ولا يتشفَّى بغير الإرجاف . »

واتضحَ الجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ في موقعه من الكُتَّاب الذين ذمَّ اخلاقهم بما لا يحتمل المزيد واطرى عليهم بما لا يحتمل المزيد أيضاً . فقد ورد في [كتاب ذم اخلاق الكتَّاب / رسائل الجاحظ / مكتبة الخانجي / ص ١٨٧ ـ ٢٠١] « حفظك الله وأبقاك وأمْتَعَ بك . قد قرأتُ كتابك ومِدْحَتَك أخلاق الكُتَّاب وأفعالهم ووصفَك فضائلهم وايامهم وفهمتُه . . . فقد رأيتُك أطنبتَ بأمجاد هذا الصنف من الناس وحكمتَ بفضيلة هذه الطبقة من الخلق . . . ولستُ أدَعُ توفيقك على موضع زللك في الاحتجاج . . وأبينُ ـ مع ذلك ـ رداءة مذاهب الكتَّاب وأفعالهم ولؤم

طبائعهم وأخلاقهم بما تعلم انت والناظر في كتابي هذا إنّي لم أقل إلاّ بعد الحُجّة . . . ثم أقول ما ظنُّك بقوم منهم أوّلُ مرتدٍ كان في الاسلام كتب لرسول الله فخالف في كتابه إملاء ما أنزل الله فيه آيات من القرآن . . . وهو عبدالله بن سعد بن أبي سرّح . . . ثم استكتب رسول الله بعده معاوية بن أبي سفيان . فكان أول من غدر في الاسلام بأمامه وحاول نقض عرى الايمان بآثامه . . . ثم كتب لعثمان بن عفان مروان بن الحكم فخانه في خاتمه وأشعل الرعية حرباً عليه في ملكه . . . ولو كانت الكتابة شريفة كان أحق الخلق بها رسول الله وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم وذوو الفضل والشرف فيهم . . . ومع ذلك فان قبح الكتابة بُنيَ على أن لا يتقلّدها إلاّ تابع ولا يتولاّها إلاّ من هو في معنى الخادم . . . ثم هو مع ذلك في الذّروة القصوى من الصَلَف والسَّنام الأعلى من البذخ وفي البحر الطامي من التيه والسَّرف . . . يتوهّم الواحد منهم أنه إذا عَرَّض جُبَّته وطوَّل ذيله وعَقَصَ على خده صُدْغَه وتحَذَّف الشاربَين على وجهه أنه المتبوع ليس التابع والمليك الذي فوق الملك . . . ثم انكم ـ معاشرَ الكُتّاب ـ في غاية التقاطع عند الاحتياج وفي ذِروة الزُّهد في التعاطف عند الاختلال . وأنه لَيَبْلُغني أن رجلاً من القصّابين يكون في سوق فيتلف ما في يديه فيُخلي له القصّابون سوقهم يوماً ويجعلون له في أرباحهم فيكون بربحها منفرداً أو بالبيع مفرداً فيُسدُّون بذلك خلّته ويجبُرون منه كسْره . . . ثم أنكم أولاد علاّت وضرائر أمّهات في عداوة بعضكم بعضاً . . . وحَنَق بعضكم على بعض . أفٍّ لكم ولأخلاقكم . . . ان للكتاب طبائع لئيمة . . . ولولا ذلك لم يكن سائر أهل التجارات والمكاسب بنُظَرائهم بَرَرَة ومن درائهم لهم حَفَظَة . » يقابل هذا الموقف الصارم موقف رقيق معاكس ـ ولا نقول غير ذلك لأننا في مناسبة تكريم ذكرى الجاحظ ـ .

والموقف الرقيق هذا واضح في رسالة رقيقة بعث بها الجاحظ الى محمد بن عبد الملك الزيات [رسالة الجد والهزْل المصدر السابق ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧] « جُعِلْتُ فداك لا تتعرَّض لعداوة عقلاء الرواة ولضغينة حُفّاظ المثالب وللسان من عُرِف بالصدق والتوخّي وبقلة الخَطَل والتنكّب ما وجدتَ من ذلك مندوحة . . . ولا تُعاقِب وادّاً وان اضطرك المِراء . ولا تجعل طول الصُحبة سبباً للتضجُّر واصبرْ على خَلَقه فإن خَلَقه خير من جديد غيره . . . وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره وأنت فيه قسيمه !!! . . . ولو أن شيبتي التي بها استعطفك وكِبْرَة سِنّي التي بها استرحمك ـ

اللتين لم يحدثا عليَّ إلاَّ وأنا في ذَرَاك ولم يحُلاَّ بي إلاَّ وأنا في ظِلِّك لكان في شفاعة الكِبْرَة واسترحام الضّعف والوَهْنَة ما ردعك عني أشدَّ الرَّدع ويؤثِّر في طباعك أبين الأثر . فكيف وقد أمْتدحتني جديداً ثم تريد أن تُهينني خَلَقاً !! وقوَّيتَ عظمي أغلظ ما كان ثم تريد أن توهنه أرَقَّ ما كان !!! وهل هَرِمتُ إلاَّ في طاعتك !!! وهل أخلقني إلاَّ معاناة خدمتك!! » . وعبارات أُخَر مماثلة وردت في رسالة بعث بها الجاحظ الى احمد بن أبي دؤاد [آثار الجاحظ / عمر أبو النصر ص ١٧٣ - ١٧٤] « ليس عندي - أعزَّك الله - سبب ولا أقدر غير شفيع إلاَّ ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأصيل الذي لا يكون إلاَّ من نتاج حُسن الظَّن وإثبات الفضل بحال المأمول . . وما مَثَلُكم إلا كَمَثَل عيسى بن مريم حين كان لا يمرُّ بمَلاَء من بني اسرائيل إلاَّ أسمعوه شرّاً وأسمعهم خيراً . فقال له شمعون الصفا : ما رأيت كاليوم !!! كُلّما أسمعوك شرّاً أسمعتهم خيراً !!! فقال عيسى : كل امريءٍ يُنفق ما عنده . وليس في أوعيتكم إلاَّ الخير ولا في أوعيتكم إلاَّ الرحمة . وكلّ اناء بالذي فيه ينضح . »

وبصدد الرابطة الديالكتيكية بين الصمت والكلام - وهما ظاهرتان متنافرتان كما هو معلوم - كتب الجاحظ [كتاب البيان والتبيين ج١ ص ٢٧٢ - ٢٧٣] « قيل : « لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب » . وإنما حثّوا على الصَّمتْ لأن العامة الى معرفة خطأ القول أسْرَع منهم إلى معرفة خطأ الصمت . ومعنى الصامت في صمته أخْفَى من معنى العاقل في قوله . وإلاَّ فإنَّ السكوت عن قول الحق في معنى النطق بالباطل . ولعمري ان الناس الى الكلام لأسرع لأن أصل التركيب أن الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل والسكوت عن جميع القول . وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله . ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله . . . بل قد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت . . . وكيف يكون الصَّمت أنفع ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه !!! ونفع الكلام يَعُمُّ ويَخُصّ . والرواة لم ترو سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين . وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت . ومواضع الصمت المحمودة قليلة . ومواضع الكلام المحمودة كثيرة . وطول الصمت يُفسِد اللسان . . . وإذا ترك الانسان القول ماتت خواطره وتبلّدت نفسه وفَسَد حِسُّه . . . وأيّة جَارحة منعتَها الحركة ولم تمرّنها على الاعتماد أصابها التعقيد على حسب ذلك المنع . » وبصدد العلاقة الديالكتيكية بين المنطقين المتنافرين من الكلام كتب الجاحظ (المصدر السابق ج١ ص ٩٩) « الهَذَر والإسهاب - أي

كثرة الكلام على غير طائل - هو نقيض العِيّ والتقصير عن البيان . ومثلما ان العِيّ مذموم لأنه يُقصرُ عن بلوغ الغاية كذلك فإنَّ الخَطَل مذموم لأنه يتعدّى الحاجة ويفيض عن الغاية . . وللكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية . . . وما فَضُل عن قدر الإحتمال ودعا الى الاستثقال والمِلال فذلك هو الهَذَر وهو الخَطَل وهو الإسهاب الذي سَمِعتُ الحكماء يعيبونه . » وقال الجاحظ أيضاً [المصدر السابق ص ٢٠٢] « وإنما وقع النَّهي على كل شيء جاوز المقدار. ووَقَع اسم العِيّ على كل شيء قصرَ عن المِقدار . فالعِيُّ مذموم والخَطَل مذموم . »

تتضح اذن النظرة الديالكتيكية الأصيلة في تفكير الجاحظ : النظرة التحليلية للأمور والكشف عن جوهرها والبعد عن التعميمات الجارفة والنظر الى الشيء في ضوء قرينته أو سياقه وفي حدود المناسبة الزمانية والمكانية . وتلك صفة تتحدى الزمان والمكان ويحتاج اليها كل انسان في عهد الجاحظ وفي زماننا هذا بصورة خاصة حيث كثر التلفيق وانتشر التضليل والدس والافتراء . وقديماً قال الشريف الرضي « وما آفة الاخبار إلاّ رواتها » .

والجانب الديالكتيكي يتضح عند الجاحظ في موقفه من المعلمين [كتاب البيان والتبيين ج١ ص ٢٥٠ - ٢٥٢] : « والمعلمون عندي على ضربين: منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامّة الى تعليم أولاد الخاصّة . ومنهم رجال ارتفعوا من تعليم أولاد الخاصّة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة . فكيف نستطيع أن نزعم ان عليّ بن حمزة الكسائي ومحمد بن المستنير الذي يقال له قُطْرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حَمقى !!! . . . ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم . . . فإن ذهبوا إلى معلمي القرى فان لكل قوم حاشية وسَفِلة . فما هم في ذلك إلاّ كغيرهم . وكيف نقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل الكميت بن زيد وعبدِ الحميد الكاتب وقيس بن سعد وعَطاء بن أبي رَبَاح !!! ومثل عبد الكريم بن أمية وحسين المعلم وأبي سعيد المعلم !!! ومن المعلمين الضحَّاك بن ابراهيم . وأمّا محمد الجُهني وعامر الشّعبي فكانا يعلّمان أولاد عبد الملك بن مروان . . ومنهم أبو سعيد المؤدِّب وعبد الصمد بن عبد الأعلى وكان معهم ولد عتبة بن أبي سفيان . ومنهم محمد بن السكَنَ وأبو بكر عبدالله بن كَيسان . . وما كان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم ولا أحسن بياناً من أبي الوزير وأبي عدنان المعلمين . »

ويستمر الجاحظ في سرد نماذج من تفكيره الديالكتيكي الذي تستند إليه تحليلاته السايكولوجية العميقة فيقول في معرض الشك واليقين [كتاب الحيوان ج٦ ص ٣٥ - ٣٧]

« وبَعْدَ هذا فاعرف مواضع الشك وحالاته الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين . . . ثم اعلم أن الشك في طبقات عند المتكلمين . . . وكما قال ابو الجهم للمكي « أنا لا أشك » قال المكي « وأنا أكاد لا أوقن . » وقال أبو اسحق « الشاك اقرب اليك من الجاحد . » . . . وإذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم وفي أي طبقة هو . . . فكن عالماً في صورة متعلّم . ثم اسأله سؤال من يطمع بلوغ حاجته منه . . . والعوام أقل شكوكاً من الخواص لأنهم لا يقعون بين التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم . فليس عندهم إلاّ الإقدام على التصديق المجرَّد أو على التكذيب المجرَّد . واتضح الجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ كما اتضح عمقه السايكولوجي في التحليل عند مقابلته الجدّ بالهزْل: [التربيع والتدوير ص ٦٥ - ٦٨]

« وقد ذهب الناس في المزاح الى معان متضادة وسلكوا منه في طرق مختلفة . فزعم بعضهم ان جميع المزاح خير من جميع الجد . وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما يستويان . . . . ونحن نعوذ بالله ان نجعل المزح في الجملة كالجد في الجملة . بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد . وعامة الجد خير من عامة المزح . . . وإن الناس وان تسمَّوا بعابس وعباس وكالح ومرَّة وصخر وحنظلة . . . فقد تسمَّوا بالضحَّاك والبسَّام . »

وبصدد قضية اللفظ والمعنى من الناحية الديالكتيكية قال الجاحظ [كتاب البيان والتبيين ج١ ص ١٣٦] « ومن أراد معنى كريماً فلينتقِنَّ له لفظاً كريماً فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف . . . فكن في ثلاث منازل : فانَّ أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً . . . أمَّا عند الخاصَّة ان كنت للخاصة قصدت وأمَّا عند العامة إن كنت للعامة قصدت . والمعنى ليس يُشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامة . » وقال أيضاً [المصدر السابق ص ١٣٨ - ١٩٣] « ينبغي للمتكلّم أن يعرف اقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من

ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً حتى يقسِّم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسِّم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات . » وقال أيضاً [المصدر نفسه ص ١٤٤] « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سُوقياً كذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلاَّ أن يكون المتكلِّم بدوياً أو إعرابياً فإنَّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس . كما يفهم السُّوقي رَطانة السُّوقي . وكلام الناس في طبقات . كما أن الناس أنفسهم في طبقات . » ويختتم الجاحظ ملاحظاته بالعبارة الطريفة التالية « وأنا أقول انه ليس في الأرض كلام هو امتعَ ولا أنق ولا ألذَّ في الاسماع ولا أشدَّ اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للسان من طول استماع حديث الاعراب العقلاء الاصحاء والبلغاء » .

وكتب الجاحظ أيضاً [البيان والتبيين ج١ ص ١١٣] « حدَّثني صديق لي قال قلت للعتَّابي ما البلاغة ؟ قال كل من افهمك حاجته للإعادة ولا حُبْسَة ولا استعانة فهو بليغ » . وقد علَّق الجاحظ على قول العتَّابي [المصدر نفسه ص ١٦٣ - ١٦٤] « قال أبو عثمان : والعتَّابي حين زعم ان كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يَعنِ أن كل من أفهمنا من معاشر المولَّدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام **الملحون** والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه . ونحن قد فهمنا كلام النبَّطي الذي قيل له « لِمَ اشتريتَ هذه الأتان ؟ » قال « اركبها وتَلَدَ لي » - بفتح المكسور والمضموم في الكلام . وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً . . . فمن زعم أنَّ البلاغة أنْ يكون السامع يفهم معنى القائل فقد جعل الفصاحة واللُّكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كلَّها سواء وكلَّه بياناً . . . وقد روى أصحابنا أن رجلاً من البلديين قال لإعرابي « كيف أهْلِك » قالها بكسر اللام . قال الاعرابي صَلْباً - لإنه أجابه على فهمه ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله . . . وحكى الكسائي أنه قال لغلام بالبادية « مَنْ خَلَقْكَ ؟ » - وجزم القاف . فلم يدر الغلام ما قال ولم يجبه . فردَّ عليه السؤال . فقال الغلام لعلك تُريدُ مَنْ خَلَقَكَ . وفتح القاف . » ويستمر الجاحظ في حديثه عن الرابطة الديالكتيكية بين اللفظ والمعنى فيقول [البيان والتبيين ج١ ص ٨٣] « وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره . ومعناه في ظاهر لفظه . . . فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزَّهاً عن

الاختلال مصوناً عن التكلُّف صَنَعَ في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة . » ثم يقول [المصدر نفسه ص ١٤٢] « فمن الكلام الجَزْل والسخيف والمليح والخشن والقبيح والسَمْج والخفيف والثقيل . وكله عربي . وبكل قد تكلَّموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا » . ثم يجسِّد الناحية الديالكتيكية فيقول [المصدر نفسه ص ١٤٥] « وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع وربما أَمْتَع بأكثر من إمتاع الجَزْل والفَخْم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني » .

والجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ يتضح في موقفه من البخلاء . فقد ورد مثلاً في كتاب البخلاء ص ١ ـ ٥ النص التالي : « ذكَرْتَ ـ حفظك الله ـ أنك قرأت كتابي في تصنيف حِيَل لصوص النهار وفي تفصيل حِيَل سرَّاق الليل . . . وذكرتَ أنَّ قدْر نفعه عظيم وأن التقدم في درسه واجب . وقلتَ : اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحَّاء وما يجوز من ذلك في باب الهَزْل وما يجوز منه في باب الجد لأجعل الهَزْل مُسْتَراحاً والراحة حجاماً . . . وقلتَ : وليس عجبي ممن خَلَع عِذاره في البخل وابدى صفحته للذم . . . كعجبي ممن قد فَطِن لبخله وعرف افراط شِحّه وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه . ولربما فَطِن أنه قد فُطِنَ اليه وعُرِف ما عنده فموَّه شيئاً لا يقبل التمويه ورقَّع خرقاً لا يقبل الرقع . فلو أنه فطن لعيبه وفطن لمن فطن لعيبه فطن لضعفه عن علاج نفسه . . . لترك تكلُّف ما لا يستطيعه ولاستراح من كدِّ الكُلْفَة ودخل في غمار الأمَّة . . . وبَعْدُ فما باله يفطُن لعيوب الناس إذا أطعموه ولا يفطُن لعيب نفسه إذا أطعمهم وان كان عيبه مكشوفاً وعيب من أطعمه مستوراً !!! » واستطرد الجاحظ قائلاً [المصدر نفسه ص ١ ـ ٥] « وذكرتُ مُلَحَ الحزامي واحتجاج الكندي ورسالة سهل بن هرون وكلام ابن غزوان وخطبة الحارثي وكل ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم . ولِمَ سَمَّوا البخل إصلاحاً والشُّح اقتصاداً . . ولِمَ جعلوا الجود سرَفاً والإِثْرَة جهلاً . ولِمَ زهدوا في الحمد وقلّ احتفالهم بالذم . . . ولِمَ تتابعوا في البخل . ولِمَ اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع أَنَفَتِهم من ذلك الاسم . ولِمَ رَغِبوا في الكسب مع زُهدهم في الإِنفاق . ولِمَ عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى . ولِمَ احتجُّوا مع شدة عقولهم لِمَا أجمعت الأمة على تقبيحه . ولِمَ فخروا ـ مع اتساع معرفتهم ـ بما أطبقوا على تهجينه . وكيف يفطُن أحدهم عند الاعتلال للبخل . . . ولا يفطن لظاهر قبحه وشناعة اسمه . »

واتضح الجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ أيضاً في ملاحظاته التي أبداها

أثناء التحدث عن عبدالله بن كاسب الذي رماه الجاحظ بالبخل [البخلاء ص ٥٢ ـ ٦٤] « قلتُ له مرةً قد رَضيتَ أن يقال عبدالله بخيل؟ . . . قال لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال . . قلت : ولا يقال أيضا : فلان سخي إلاّ وهو ذو مال فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال . واسم البخيل يجمع المال والذم فقد اخترتَ أخسَّهما وأوضعهما . قال وبينهما فرق . قلتُ فهاتِه . قال : في قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه . وفي قولهم سخي إخبار عن خروج المال من ملكه . واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم . واسم السخي اسم فيه تضييع ومدح . والمال زاهد نافع مُكرِمٌ لأهله ومُعِزٌ . والحمد ربح وسُخرِيَة واستماعك له ضعف وفُسولة . » وقال الجاحظ أيضاً وهو يداعب احمد بن عبد الوهاب [التربيع والتدوير ص ٥٣ و١٨] « وفيك أمران غريبان وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك . . . فجوهرك فلكي وتركيبك أرضي ، ففيك طول البقاء ومعك دليل الفناء . وإن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك . وإن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً . ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك . وإذ قد سلَّموا لك بالرغم شطراً ومنعوك بالرغم شطراً فقد حَصَلْتَ ما سلَّموا لك وأنت على دعواك فيما لم يسلِّموا » .

وجرياً مع منطقه الديالكتيكي وازن الجاحظ بين السخاء الذي عُرِف به العرب وبين البخل الذي تحدَّث عنه لدى أهل خراسان وبخاصة أهل مرو . فكتب في معرض التحدث عن الكرم عند العرب وموقفهم من الضيف واستقبالهم اياه بالبشاشة واللطف [البيان والتبيين ج١ ص ١٠ ـ١١] « ولأن العرب تجعل الحديث والبَسْط والتأنيس والتَلقي بالبِشرْ من حقوق القِرَى ومن تمام الإكرام وقالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المواكلة . . . وقال الشاعر :

أُضاحك ضيفي قبل إنزال رَحْلِه
ويُخصِب عندي والمحَلُّ جُديبُ
وما الخِصْبُ للأضياف أن تُكثِر القِرَى
ولكنَّما وَجْهُ الكريم خصيب

ويستشهد الجاحظ بأبيات مترفة من قصيدة أنيقة للحسين بن مُطَيرْ في رثاء مَعْن

بن زائدة الشيباني :

أَلِمَّا على مَعْن وقولا لقبره
سَقَتْكَ الغوادي مَرْبعاً ثم مَرْبِعا

فيا قبرَ معنٍ كنتَ أوّلَ حُفرة
من الأرض خُطَّتْ للسَّماح وموضعا

ويا قبر معن كيف واريتَ جوده
وقد كان منه البرُّ والبحر مُتْرَعا

بلى قد وَسِعْتَ الجودَ والجودُ ميِّت
ولو كان حَيّاً ضِقْتَ حتى تَصدَّعا

فتىً عيشَ في معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مَرْفَعا

تمنَّى أناس شأوه من ضلالهم
فأضحَوا على الأذقان صَرْعَى وظُلَّعا

ومن جيد الشعر في مدح **معن** هذا قول الشاعر:

ومن جوده يرمي الكراةَ يأسَهُم
من الذهب **الأريز** صِيْغَتْ نصولُها

لِيُنفقَها المجروح عند انقطاعه
ويشتري الأكفانَ منها قتيلُها

وتظهر السماحة عند العرب فى ظاهرة « الاستنباح » الطريقة المشهورة : وهي إذ المُدْلِجين في الليل البهيم يُضطَّرون أحياناً أن **يستنبحوا** كلاب الحي عن طريق تقليدهم نباحها ليلفتوا نظر أهل الحي نحوهم لغرض الإيواء .

وفي الشعر العربي أبيات ممتعة تصف هذه الظاهرة منها :

ومُسْتَنْبِحٍ بات الصَّدى يستجيبه
الى كل صوت فهو في الرَّحْل جانحُ

فقلت لأهلي : ما بُغامُ مطيَّةٍ
وسار أضافَتْهُ الكلاب النوابح

فقالوا غريبٌ طارقٌ طوَّحتْ به
متونُ الفيافي والخطوبُ الطوارح
فقمتُ ولم أجثم مكاني ولم يقم
مع النفس غلاَّتُ النفوس الفواضح

وقال آخر:

ومستنبحٍ تهوي مساقِطُ رأسه
إلى كل شخص فهو للسمع أصْوَرُ
حبيبٌ الى قلب الكريم مُناخهُ
بَغيضٌ الى الكَوماء والكلبُ أغْدَرُ
حَضَأتُ له ناري فأبصر ضوءها
وما كان لولا حَضْأةُ النار يُبصرُ
فجاء ومحمود القِرَى يَستفزُّه
اليها وداعي الليل بالصبح مُفرِدُ

وقال غيره:

ومستنبحٍ في لُجِّ ليلٍ دعوتُه
بمشبوبةٍ في رأس صَمْير مقابلِ
فقلتُ له أقبِلْ فأنك راشدٌ
وإن على النار النَّدى وابنُ ثامِلِ

ومدح الشعراء الرجل الجواد مدحاً ضمنياً وطريفاً عن طريق مدح كلبه . فقال احدهم :

إلى ماجدٍ لا يَنبح الكلبُ ضيفه
ولا يتأدَّاه ابتغاء المغارمِ

وقال آخر :

يكاد إذا ما أبصر الضيفَ مقبلاً
يكلِّمه من حبه وهو أعْجَم

وتحضرنا ـ في هذه المناسبة ـ قصة طريفة رواها المبرِّد ـ في معرض الحديث عن الجود عند العرب ـ [الكامل: ص ٤٥ ـ ٤٦] مفادها أن يزيد بن المهلب مرَّ باعرابية وهو في طريقه الى البصرة بعد خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز . فنحرت الاعرابية له عنزاً فقال لولده ـ الذي كان يرافقه « ما معك من النَفَقة ؟ قال ثلثمائة دينار . قال فادفعها لها . قال ابنه : انك تريد الرجاء ولا يكون الرجال إلاَّ بالمال . وهذه يرضيها اليسير . وهي بَعْدُ لا تعرفك . فقال : إن كانت ترضى باليسير فأنا لا أرضى إلاَّ بالكثير . وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي . ادفعها إليها . » فدفعها .

ثم يقابل الجاحظ السخاء العربي بالبخل المتمثِّل بأهل خراسان وبخاصة أهل مرو . ويسوق للتدليل على ذلك أمثلة طريفة صاغها بأسلوبه الساخر يصف بها بخلاءه [الذين هم من أطايب الناس لا تشمئز منهم الأنفس ولا يسأم القراء من سماع أخبارهم الطريفة . وقد بثَّ فيهم من خِفَّة روحه الشيء الكثير وجنَّبهم الاعتداء على أموال غيرهم بالرغم من شدة حرصهم] . كتب الجاحظ [البخلاء ص ٢٨] « نبدأ بأهل خراسان لإكثار الناس في أهل خراسان . ونخص بذلك أهل مرو . . . قال ثُمامة : لم أرَ الديك في بلدة قط إلاَّ وهو لاقط يأخذ الحبَّة بمنقاره ثم يلفظها قُدَّام الدجاجة إلاَّ ديكة مرو فإني رأيتها تسلُب الدجاج ما في مناقيرها من الحَبّ . فعلمتُ أن بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء . فمن ثَمَّة عمَّ جميع حيواناتهم . » قال الجاحظ فحدَّثتُ بهذا الحديث أحمد بن رشيد فقال : « كنتُ عند شيخ من أهل مرو . وصبي له صغير يلعب بين يديه . فقلتُ للصبي ـ إمَّا عابثاً أو ممتحِناً ـ أطعمني من خبزكم . قال : لا تريده هو مرٌّ . فقلت أسقني من مائكم . قال لا تريده هو مالح . قلتُ هات لي من كذا وكذا . قال لا تريده هو كذا وكذا . إلى أن عددتُ أصنافاً كثيرة . كل ذلك يمْنَعْنيه ويُبغِّضهُ إليَّ . فضحك أبوه وقال : ما ذنبنا !! إن هذا من علمه كما تسمع ـ يعني أن البخل طبع فيهم . » ويستطرد الجاحظ فيقول : « وزعم أصحابنا أن خُراسانية ترافقوا في منزل وصبروا عن الإرتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر . ثم أنهم تعاهدوا وتخارجوا . وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل في العزم معهم . فكانوا إذا جاء المصباح شَدُّوا عينه بمنديل . ولا يزالون كذلك الى أن يناموا ويطفئوا المصباح . فإذا أطفؤه أطلقوا عينيه . »

ثم ينتقل الجاحظ فيعرض نماذج طريفة من بخلائه الظرفاء الآخرين من

غير أهل خراسان أطرفها بنظرنا النماذج التالية التي تنطوي على تحليل دقيق للجوانب السايكولوجية للبخلاء . فأورد عن الحزامي - أبي محمد عبدالله بن كاسب الذي مرَّت الاشارة اليه - العبارات الطريفة التالية : [البخلاء ص ٤٨ - ٤٩] : قال الجاحظ « كنا عند داود بن أبي داود بواسط . فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق دِبْس . فقسَّمها بيننا . فكلٌ منا أخذ منها . . . ولكن الحزامي أعطى غيره . فأنكرتُ ذلك من مذهبه ولم أعرف جهة تدبيره . فقلت للمكي قد علمت أن الحزامي يجزع من الإعطاء وهو عدوه فأمَّا الأخذ فهو ضالته وأمنيَّته وأنه لو أُعطي أفاعي سجستان وثعابين مصر وحيَّات الأحواز لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعاً عليها . فعساه أراد التفضيل في القسمة ؟ قال أنا كاتبه وصداقتي أقدم . وما ذلك من مذهبه . . . فلم نلبث أن دخل علينا فسألته عن ذلك ففكَّر قليلاً ثم باح بسرِّه وقال : . . . صَنيعتُه أضعاف ربحه . وأخذُه عندي من أسباب الأدبار . قلت فهات اذن ما عندك . قال أوَّل ذلك كِراء الحمَّال . ثم هو عليَّ خطر حتى يصير الى المنزل . فاذا صار الى المنزل صار سبباً لطلب العصيدة والأرُزّ فذهب في العصائد وجلب ذلك شراء السمن ثم جلب السمن غيره . . وصار هذا أضرَّ علينا من العيال . . . وإن أنا جعلته نبيذاً احتَجْتُ الى كِراء القدور والى شراء الحِبّ وإلى شراء الماء والى كراء مَنْ قد يوقد تحته وإلى التفرُّغ له . فإنْ وكلتُ ذلك لجارية اسودَّ ثوبها وغُرِمنا نحن الإشنان والصابون . فان فسد النبيذ ذهبت النَّفقة باطلاً . . . وإن سَلِم - وأعوذ بالله - وجاء صافياً لم نجد بُدّاً من شربه . . . على أني ان جلست في البيت لم يكن لي بُدٌّ من واحد وذلك الواحد لا بد له من دريهم لحم وطسوج نقل وقِراط ريحان ومن إبزار للقدر ومن حطب للوقود . وهذا كله غُرم . وهو بعد هذا شؤم وحُرقة وخروج عن العادة الحسنة . » وقال الجاحظ أيضاً [البخلاء ص ١٠٦ - ١٠٧] « زعموا أن رجلاً قد بلغ في البخل غايته وصار إماماً وأنه كان إذا صار في يده الدرهم خاطبه وناجاه وفدَّاه واستبطنه . وكان يقول له : كم من أرض قطعت . . . ومن كيس فارقت . . . وكم من خامل رَفَعت ومن رفيع قد أخملت . لك عندي أن لا تعرى . » ثم يلقبه في كيسه ويقول له « اسكن على اسم الله في مكان لا تُهان ولا تُذَلّ ولا تُزْعَج منه . وأنه لم يدخل في كيسه دِرْهَم قطّ فأخرجه . فكان أهله منه في بلاء وكانوا يتمنون موته والخلاص منه . . . فلما مات - وظنوا أنهم استراحوا منه - قدم ابنه فاستولى على ماله وداره ثم قال ما كان إدام أبي ؟ فإنَّ أكثر الفساد إنما يكون من الإدام . قالوا كان يتأدَّم بجبنة عنده . قال أَرُونيها . فاذا فيها حَزٌّ كالجدول من أثر

مسح اللُّقمَة . قال ما هذه الحفرة ؟ قالوا كان لا يقطع الجبن وإنما يمسح على ظهره فيحفر كما ترى . قال بهذا أهلكني وبهذا أقعدني هذا المقعد . لو علمتُ ذلك ما صلّيتُ عليه . قالوا فأنت كيف تصنع ؟ قال أضعها من بعيد فأشير اليها باللقمة . »

وفي ختام هذا الجانب من جوانب البحث نود أن نشير إلى أن الناحية الديالكتيكية متأصلة في كيان الجاحظ من الناحية السايكولوجية . فقد ذكر يموتُ بن الزُرَّع عن خاله الجاحظ قوله « يجُبُ للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير شجاعاً لا يبلغ الهَوَج محترساً لا يبلغ الجُبن ماضياً لا يبلغ القِحَّة صَموتاً لا يبلغ العِيّ حلماً لا يبلغ الذُل منتصراً لا يبلغ الظلم وَقوراً لا يبلغ البلادة نافذاً لا يبلغ الطيش . » ويلوح ان الناحية الديالكتيكية طغت على حياة الجاحظ الفكرية أثناء حياته ولازمته حتى الموت . . . ذكر القالي [الأمالي ص ٤٩ ـ ٥٠] عن مُعاذ الخولي المتطيب أنه قال « دخلنا يوماً بسرَّ مَنْ رأى على عمرو بن بحر الجاحظ لقدره وقد أُفلج . فلما أخذنا مجالسنا وأتاه رسول المتوكل . . . قال : ما يضع أمير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل ؟ ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شِقّان : أحدهما لو غُرِزَ بالمِسال ما أحَسَّ . والآخر يمرُّ به الذُّباب فيغوث . وأكْثرُ ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتاً من قصيدة عون بن محُلّم الخُزاعي . قال أبو مُعاذ : وكان سبب هذه القصيدة ان عوناً دخل على عبدالله بن طاهر فسلّم وردَّ عليه . فلم يسمع فأُعلِمَ بذلك . فأنشده :

يا ابنَ الذي دان له المشرقان
طُرّاً وقد دان له المغربان
ان الثمانين - وبُلِغْتَها -
قد أحوجت سمعي الى ترجمان
ولم تدَعْ فيَّ لِمستَمْتَع
إلاَّ لساني وبحسبي لساني ».

وتبدو الناحية الديالكتيكية عند الجاحظ في التباين بين فجره ومنظره : فجر يتسم بالفكر الثاقب ومنظر يتسم بالبشاعة . كما يتضح الجانب الديالكتيكي أيضاً في حياة الجاحظ المعاشية : فقره المدقع أيام طفولته وفي ثرائه وهو كهل وشيخ .

ثانياً : **الإحاطة** : أمّا الصفة البارزة الثانية لتفكير الجاحظ وتحليلاته السايكولوجية فهي قدرته على الإحاطة أو الالمام بالموضوع الذي يعالجه بشمول وعمق وبراعته الفائقة في الأفاضة فيه من جميع جوانبه واستيفائه إياه حقه في التفصيل - مع خلطه الجد بالهَزْل بأسلوب ساحر ممتع - . وناحية الاحاطة هذه مرتبطة أوثق الارتباط بالناحية الديالكتيكية التي تحدثنا عنها وبالنواحي الأُخَر التي سيأتي ذكرها .

كتب الجاحظ بصدد الاحتجاج لقصر القامة وذم طولها [التربيع والتدوير ص ٢٢ - ٢٣] وزعمتَ ان الانسان إذا طال جسمه وامتد شخصه أسرع الإنهدام الى بدنه والانحناء الى ظهره وأن القصير لا يتقوَّس ظهره ولا يميل عنقه ولا يضطرب شخصه ولا تعوَّج عظامه . ويسعه كل باب ويقطعه كل ثوب ولا تخرج رجلاه من النعش ولا يفضل من الفراش . وهو بَعْدُ أخفُّ على القلوب وأخلط بالنفوس وأبعد من السماجَة وأدخَلُ في كل باب ملاحةً . » وكتب أيضاً بصدد الإحتجاج للعرض - الذي يتضمن بالطبع معنى القصر - [المصدر السابق ص ٢٣]: « وتزعم ان الارض لم توصف بالعرض - دون الطول - إلاّ لأفضلية العرض على الطول . . . وذلك كقول الشاعر:

كأنّ بلاد اللـــه وهـي عريضـــةٌ
على الخـائف المطلـوب كَفَّـه حابِـــلِ

ولم يقل : كأن بلاد الله وهي طويلة . وقلتَ لولا أفضلية العرض على الطول لَما وصف الله الجنَّة بالعرض دون الطول حيث يقول جلَّ ثناؤه « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض . » وكتب الجاحظ في المعنى نفسه [المصدر السابق ص ١٧ - ١٨] « ورأيتُك تقول وإن كان الفضل في النِّكاية والشِّدَّة والصلابة فقصار كل شيء أشدُّ ضرراً وأدَقُّ مدخلاً وأظهر قوة وجلداً : كالحجارة أصْلَبُها الحصى وكالحيَّات اقتلها الأفعى . . . وكذلك أحرار الطير وبُغاثُها . . . . واحتججتَ بإن الحُسن والفضل. لصغار ما في الانسان كالناظرين والانثيين وحبَّة القلب وأم الدماغ . » ويستمر الجاحظ في منطقه هذا ويتناول قضية الاحتجاج للتدوير دون التطويل : فيقول [المصدر نفسه ص ١٨] « وتقول : وجدنا الأفلاك وما فيها والأرض وما عليها على التدوير دون التطويل . . . كذلك الورق والحَبّ والثمر والشجر . . . وقلتَ :

والرمح - وإن طال - كان التدوير عليه أغلب لأن التدوير قائم فيه موصولاً ومفصّلاً . والطول لا يوجد فيه إلاّ موصولاً . وكذلك الانسان وجميع الحيوان . . . وقلتَ : ولا يوجد التربيع إلاّ في المصنوع دون المخصوص وعلى ان كل مربع ففي جوفه مدوَّر فقد بان المدوَّر بفضله وشارك القصر في حصته . »

واتضحت الإحاطة بالموضوع عند الجاحظ في قصة الكندي الطريفة التالية - وهو من ظرفاء البخلاء وكان صاحب عقار وله مساجلة طريفة مع معبد الذي استأجر إحدى دوره . [البخلاء ص ٨١ - ٩٣] « كان الكندي لا يزال يقول للساكن وربما قال للمجاور « إن في الدار امرأة بها حَمْلٌ . والوَحْمى ربما أسقطت من ريح القِدْر الطيِّبة . فاذا طبختم فردُّوا شهوتَها ولو بغَرْفَة أو لَعْقَة فان النفس يَرُدُّها اليسير . . . وإن لم تفعل ذلك - بعد إعلامي إياك - فكَفَّارَتُك عبدٌ أو أَمَة أَلزَمْتَ ذلك أم أبَيْت » . وتلك حيلة بارعة ابتكرها الكندي - على ما يقول الجاحظ - للابتزاز والحصول على الطعام مع ثرائه الفاحش : « فكان الكندي ربما يوافي إلى منزله من قِصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام . . . وكان أكثرهم يفطن إلى الحيلة ويتغافل » . ويسترسل الجاحظ فيقول على لسان معبد [المصدر السابق الصفحات نفسها] « نزلنا دار الكندي أكثر من سنة نُروِّح له الكِراء ونقضي له الحوائج ونفي له بالشرط. » قال الجاحظ « وقد فهمتُ ترويح الكراء وقضاء الحوائج فما الوفاء بالشرط ؟ قال في شرطه على السكان أن يكون له رَوْث الدَّابة . . . ونوى التمر وقشور الرمان والغَرْفَة من كل قدر يُطْبَخ للحبْلى في بيته . » ثم قال الجاحظ على لسان معبد « فبينا أنا كذلك إذ قَدِمَ ابن عم لي ومعه ابن له . وإذا رُقْعَة جاءتني من الكندي وفيها : « إنْ كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك وإن كان السكن في الليلة الواحدة يجر علينا الطمع في الليالي الكثيرة ؟ » فكتبتُ اليه « ليس مقامهما عندنا إلاّ شهراً أو نحوه » فكتب إليَّ : « أن دارك بثلاثين درهماً وأنتم ستة . لكل رأس خمسة دراهم . فإذا قد زدْتَ رجلين فلا بُدَّ من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا بأربعين » . فكتبتُ اليه « وما يَضرُّك من مقامهما ؟ وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال . وثقل مؤنتهما عليَّ دونك . فاكتب إليَّ بعذرك لأعرفه . » فكتب إليَّ « الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة . وهي قائمة معروفة - من ذلك : سرعة امتلاء البالوعة وما في تنقيتها من شدة المؤلة . ومن ذلك : أن الاقدام اذا كثُرت كثُر المشي على ظهور السطوح المُطيَّنة وتَنْقلَع الجصّ ويتكسر العَتَب مع انثناء الأجذاع الكثيرة

الواطئة وتكسرُّها لفرط الثقل . وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال وجذب الأقفال تهشّمت الأبواب وتقلقت الرزّات . وإذا كثر الصبيان والعيال والزوار . . . احتيج من صب الماء الى اتخاذ الحِبَبَة القاطرة والجرار الراشحة الى أضعاف ما كانت عليه . فكم من حائط قد تآكل أسفله وتناثر أعلاه واسترخى أساسه وتداعَى بنيانه من قَطْرِ حِبّ ورشح جرّة ومن فضل ماء البئر ومن سوء التدبير !!! . . . وعلى قدر كثرتكم تحتاجون من الخبيز والطبيخ ومن الوقود والتسخين . والنار لا تبقي ولا تذر . وإنما الدور حطب لها . وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها . فكم من حريق قد أتى على أصل الغَلَّة . فكلفتم أهلها أغلظ النَفقة . وربما كان ذلك عند غاية العُسرة وشدة الحال . وربما تعدَّتْ تلك الجِنابة الى دور الجيران والى مجاورة الأبدان والأموال .

. . . ثم تتخذون المطابخ في العلالي على ظهور السطوح وإن كان في أصل الدار فضل وفي صحنها متسَع . مع ما في ذلك من الأضرار بالأنفس وبالأموال وتعرُّض الحَرَم ليلة الحريق لأهل الفساد وهجومهم مع ذلك على سرٍّ مكتوم وخبيء مستور : من ضيف ومُستَخْفٍ ورَبِّ دار متوارٍ ومن شراب مكروه ومن كتاب مُتَّهم ومن مال جَم أُريد دفنه فأَعْجَل الحريق أهله عن ذلك فيه . . . ومن حالات كثيرة وأمور لا يحُب الناس أن يُعرَفوا بها . . . ثم ان كثيراً منكم يدافع بالكِراء ويماطل بالأداء حتى إذا اجتمعت أشهر عليه فَرَّ وخَلَّى أربابها جياعاً يندمون على ما كان من حسن عملهم وإحسانهم . فكان جزاؤهم وشكرهم انقطاع حقوقهم والذهاب بأموالهم . . . والدار يسكنها الساكن وقد مسحناها ونظّفناها لتحسن في عين المستأجر ويرغب فيها الناظر . فاذا خرج ترك فيها مزبلة وخراباً لا تُزويله إلاّ النَّفَقة الموجبَة . ثم لا يدع مِتْرَساً إلاّ سرقه ولا سُلَّماً إلاّ حمله ولا قفلاً إلاّ أخذه . . . وقد دعاه التهاون والقسوة إلى أن يدق حيث جلس . . . ثم يستكثر من نفسه إخراج عشرة دراهم ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشهر . . . هذا والايام تُنقص وتُبلي الجدَّة وتُفرِّق الجمع المجتمع عاملةً في الدور كما تعمل في الصخور وتأخذ من المنازل كما تأخذ من كل رطب. ولانهدام المنازل غاية قريبة ومدة قصيرة . والساكن فيها هو كان المتمتّع بها والمنتفع بمرافقها وهو الذي أبلىَ جدَّتها . . . فاذا قسنا العُزْم عند انهدامها بإعادتها وبعد ابتدائها وعُزم ما بين ذلك من مَرَمَّتها وإصلاحها ثم قابلنا بذلك ما أخذنامن غلاّتها وانتفعنا به من إكرائها خرج على المُسكِن من الخسران بقدر

ما حصل للساكن من الربح . . . . . . ومع بغض الساكن للمِسكن وحُبّ المِسكن للساكن . لأن المُسكن يحب صحة بدن الساكن ونَفاق سوقه إن كان تاجراً وتحرُّك صناعته إن كان صانعاً . ومحبَّة الساكن أن يُشْغَل المُسكن عنه . ثم لا يبالي كيف كان ذلك الشغل . إلاّ انه كلّما كان أشدّ كان أحبَّ اليه . . . وعلى أن الساكن ان فترت سوقه أو كسدت صناعته ألحَّ في طلب التخفيض من أصل الغِلّة والحطيطة مما حصل عليه من الأجرة . وعلى أنه إن أتاه الله بالأرباح في تجارته والنَّفاق في صناعته لم يَرَ ان يزيد قيراطاً في ضريبته . . . ثم إن كانت الغِلّة صِحاحاً دفع أكثرها مُقَطَّعة . وإن كانت أنصافاً وأرباعاً دفعها قُراطة مفتَّتة . ثم لا يدع مُزيَّفاً . . . ولا ديناراً بَهْرَجاً إلاّ دَسَّه فيه ودسَّه عليه واحتال بكل حيلة وتأتّى بكل سبب . فاذا ردُّوا عليه بعد ذلك شيئاً حَلَفَ بالغَموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله ولا رآه قط . . . فإن كان الرسول جارية رب الدار أفسدها وربما أحبلها . وإن كان غلاماً خدعه . . هذا مع التشرُّف على الجيران والتعرُّض للجارات ومع اصطياد طيورهم وتعريضنا لسُكانهم . وربما استضعف عقولهم وطَمِعَ في نسائهم وعيبهم . فلا يزال يضرب لهم بالإسلاف ويغريهم بالشهوات ويفتح لهم أبواباً من النفقات ليبيعهم ويربح عليهم . حتى إذا استوثق منهم أعجلهم وغدر بهم حتى يتبعه ببيع دارهم او استرهاتها . . .

وربما قصد الدار غير المستأجرة ومعه امرأة يفجر بها فيجعل استئجار البيوت وتصفُّح المنازل عِلّةً لدخولها والقيام ساعة فيها . فإذا استقرّ في المنزل وقضى حاجته ردَّ المفتاح . وربما اكترى المنزل وفيه رُمَّة فاشترى بعض ما يصلحها ثم يتوخّى عاملاً جيد الكسوة وجيراناً أصحاب آنية وآلة فاذا شغل وغفل اشتمل على كل ما قدر عليه وتركهم يتسكّعون . وربما استأجر الى جنب سجن لينقب أهله اليه . أو إلى جنب صرّاف لينقب عليه . . . وربما جَنى الساكن ما يدعو الى هدم دار المُسكِن بأن يقتل قتيلاً أو يجرح شريفاً فيأتي السلطان الدار وأربابها أمّا غيَّب وإمّا أيتام وإمّا ضعفاء فلا يصنع شيئاً دون أن يسوّيها بالأرض . وبَعْدُ فالدور مُلقّاة وأربابها منكوبون ومُلقّون . وهم أشد الناس اغتراراً بالناس . . . وذلك ان مَنْ دفع داره الى مجهول لا يُعرَف فقد وضعها في مواضع الغَرَر وعلى أعظم الخطر وقد صار في معنى المودع وصار المكتري في موضع المودَع . ثم اليست خيانة وسوء ولاية!!. ثم انكم ربما أكريتم مستغلات غيركم بأكثر مما أكريتموها منه . . . لقد أهلكتم أصول أموالنا

وأخرتم غلاتنا وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة ومن أعين العوام والحشوة . . . فأنتم شر علينا من الهند والروم ومن الترك وأعديهم . »

ويستطرد الجاحظ فيقول [المصدر نفسه ص ٩٠ - ٩٢] قال اسماعيل بن غزوان « لله درُّ الكندي !! ما كان أحكمه وأحضر حجته وأنصع جبينه وأدوم طريقته !!! رأيته وقد أقبل على جماعة ما فيها إلاّ مُفسِد . . . فقال تُسمُّون من منع المال من وجوه الخطأ وحصّنه خوفاً من الغيْلَة وحفظه إشفاقاً من المذلّة بخيلاً تريدون بذلك ذمّة وشَينه . وتسمون من جهل فضل الغني ولم يعرف ذلة الفقر . وأهان نفسه بإكرام غيره جواداً تريدون بذلك حمده ومدحه . . . فمدحتم مَنْ جمع صنوف الخطأ وذممتم من جمع صنوف الصواب . . . إنما المال لمن حفظه وإنما الغنى لمن تمسّك به . ولحفظ المال بُنيتْ الحيطات وغُلّقت الأبواب واتخُذت الصناديق وعُملت الإقفال ونُقشت الرسوم والخواتيم وتعُلّمَ الحساب . . وزعمتم اننا سمينا البخل إصلاحاً كما سمّي قوم الهزيمة انحيازاً والعزل عن الولاية صرْفاً . . . أنتم الذين سميتم السرَّف جوداً وسوء نظر المرء لنفسه ولعقبه كرماً . . . فلو لم يكن من منفعة الغنى إلاّ انك لا تزال معظّماً عند من لم ينل منك قط درهماً لكان الفضل في ذلك بيّناً والربح ظاهراً. ولو لم يكن من بركة الثروة ومن منفعة اليُسر إلاّ أنّ رَبّ المال الكثير لو اتصل بملِكٍ كبير وفي جُلسائه مَنْ هو أوجب حرمة وأقدم صُحبةً وأصدق محبة وأمتع إمتاعاً وأكثر فائدة وصواباً إلاّ انه ضعيف الحال قليل ذات اليد ثم أراد الملك أن يُقسّم مالاً أو يوزع بينهم ظرفاً لجعل حظّ الموسر أكثر وان كان في كل شيء دون اصحابه وحظ الآخر أقل وأن كان هو في كل شيء فوق أصحابه . »

وقد ظهرت ناحية الإحاطة بتفاصيل الموضوع الذي يتناوله الجاحظ بالبحث في وصفه الكتاب وأهميته في حياة الانسان [كتاب الحيوان ج١ ص ٣٨ - ٤٢] :
« الكتاب نعم الذُخر والعُقْدَة والجليس والعُدَّة ونعم النُشْرة ونعم النُزهة ونعم الأنيس لساعة الوحدة . ونعم المعرفة ببلاء الغُربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . . . ان شئت كان أعيا من باقل وأبلغ من سحبان وائل وان شئتَ سرّتك نوادره وشَجتْك مواعظه . . . وبَعْدُ فما رأيتُ بستاناً يُحمَل في رُدن ولا روضة تُنقل من حُجرة الى حجرة . . . هو ينطق عن الموتى ويُترجم عن الأحياء . ومَنْ لك بمؤنس لا ينام إلاّ بنومك . ولا أعلم جاراً آمَن وخليطاً أنصف ولا رفيقاً

أطوع ولا معلِّماً أخضع ولا صاحباً أظهر كِفايةً وعناية ولا أقل إحلالاً وابراماً ولا أبعد من مِراء ولا أترك لشغب ولا أزهد في جدال ولا آنف عن قتال من كتاب . ولا أعَمَّ بياناً ولا أحسن موافاة ولا أعجل مكافأة ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمراً ولا أقرب مجتنىً وأسرع أدراكاً ولا أوجد في كل مكان من كتاب . ولا أعلم نتاجًا في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من السِّيَرِ العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحِكَم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النائية والأمثال السائدة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب . ومَنْ لك بزائر إن شئت كانت زيارته غُبّاً ورده ضمناً وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك !!! . . . والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك والصديق الذي لا يُقليك والرفيق الذي لا يَملّكَ والمستمع الذي لا يستزيدك والجار الذي لا يستبطأك والصاحب الذي لا يُريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذي ان نظرتَ فيه أطال إمتاعك وشَحَذَ طباعك وبسط لسانك وجوَّد بيانك وفخَّم ألفاظك وعمَّر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك . يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفي السفر طاعته في الحضر . وهو المعلم إن افتقرتَ اليه لم يحقرك وان قطعتَ عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وان عُزلتَ لم يَدَعْ طاعتك وان هبَّتْ ريح اعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنتَ متعلقاً منه بأدنى حَبْل لم تضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء . وانَّ أمْثَلَ ما يقطع به القُرَّاء ساعات نهارهم وأصحاب الكِفايات ساعات ليلهم نَظَرٌ في كتاب . . ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه اليك إلاَّ منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارة مع ما في ذلك من التعرّض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الرَّديَّة وجهالتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة . »

- ١٥ -

ثالثاً : **الأستطراد** : أما الناحية الثالثة التي يتميّز بها تفكير الجاحظ ونظرته السايكولوجية العميقة للأمور التي يتناولها بالتحليل فهي استطراداته الممتعة ومداعباته ومُلحه التي ينثرها في ثنايا أبحاثه هنا وهناك . والإستطرادات المشار اليها تتجلىً بأوضح أشكالها في كتاب الحيوان : وهو الكتاب الذي ألّفه وهو مفلوج

ويتضمن خلاصة علمه وتجاربه بالإضافة بالطبع على تناوله فيه حياة الحيوانات . كما تتجلىً استطراداته في كتاب البيان والتبيين الذي يبدو أنه وضعه قبل كتاب الحيوان ، وفي كتاب البخلاء ورسالة التربيع والتدوير ، وقد برز الجاحظ في استطراداته عالم نفس بارع من حيث قدرته على استخدام ظاهرة الاستطراد نفسها ومن ناحية محتوى الاستطرادات الممتع والمتنوع . كما برز الجاحظ أيضاً عالم نفس لبق يلاحظ القاريء الذي يعتريه الفتور أو الضجر عند مواصلته قراءة بحث طويل يتصف بالجدية وربما بالجحود أيضاً . وظاهرة الملل هذه ظاهرة سايكولوجية متأصلة ومنتشرة لدى عموم القُرَّاء إلاَّ في حالات نادرة تحصل في بعض الأحيان حينما ينغمر القاريء في موضوع معين يستهويه أو يتعلق بقضية بالغة الأهمية بالنسبة له . عندئذ لا يحصل السأم في مثل هذه الحالة بل يحل محله أحياناً تعب نسبي يستلزم التوقف مؤقتاً عن مواصلة القراءة لغرض الاستجمام لمواصلتها بعد ذلك . وقد أشار الجاحظ الى ظاهرة الضجر في كتاب الحيوان [ج٢ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨] « وقد صادف هذا الكتاب مِنِّي حالات تمنَّع من بلوغ الإرادة فيه . وأول ذلك العِلَّة الشديدة . والثانية قلة الاعوان . والثالثة طول الكتاب . . . وما أكثر ما يعرض في وقت إكبابي على هذا الكتاب وإطالتي الكلام وأطنابي في القول بيت ابن هَرْمَة حيث يقول:

إنَّ الحديث تَغُرُّ القومَ خلوتُه حتى يلجَّ بهم عيٌّ وإكثارُ

أما العامل الذي دفع الجاحظ إلى الاعتذار عن التطويل فقد أشار اليه [المصدر نفسه ج٥ ص ١٥٥] « ولولا سوء ظني بمن يُظهر التماس العلم في هذا الزمان ويذكر اصطناع الكتب في هذا الدهر لَمَا احتجتُ ـ في مداراتهم واستمالتهم وترفّق نفوسهم وتشجيع قلوبهم مع كثرة فوائد هذا الكتاب ـ إلى هذه الرياضة الطويلة وإلى كثرة الاعتذار . » ولهذا فانه يقول [المصدر السابق ج١ ص ٧] « على أني قد عزمتُ ـ والله الموفق ـ أن أُوشِّح هذا الكتاب بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قاريء هذا الكتاب من باب الى باب . » ثم يخاطب القاريء المحتَمل ـ وهو أضاف كما سنرى ـ بقوله [المصدر السابق ج١ ص ٦] « وإن كنا قد أمللنا بالجد وبالأحاديث الصحيحة والمروِّحة لتكثر الخواطر وتُشحذ العقول فاننا سننشِّطك ببعض البطالات . . . وأنا استظرف أمرين استظرافاً شديداً . أحدهما : استماع حديث الأعراب . والأمر الآخر احتجاج متنازِعَين في الكلام وهما لا يعلمان منه شيئاً . »

وقد أشار الجاحظ في استطراداته ـ التي سيأتي ذكر الكثير منها ـ في كتاب البيان والتبيين أيضاً عندما قال [البيان والتبيين ج٣ ص ٢٦٦] إنه يريد « أن يداوي مؤلِّفه نشاطَ القارىء له ويسوقه الى حظه بالإحتيال له : فمن ذلك أن يُزجه من شيء الى شيء ومن باب الى باب بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن ومن جمهور ذلك العلم . »

واستطرادات الجاحظ طريفة وممتعة ومهمة أيضاً استمدها في الأصل من قراءاته المستفيضة ومن تجاربه الغزيرة وملاحظاته الدقيقة للأشخاص والأحداث في زمانه . وهي تجمع بين الجد والهزل والتهكم . وفيها راحة نفسية له ولقرائه على اختلاف مشاربهم وتباين مستويات ثقافتهم ومنازلهم الاجتماعية . على انها ـ مع ذلك وربما بسببه ـ تتركز جميعاً ضمنياً وبشكل صريح أحياناً حول موضوع واحد هو موقفه من قضايا مجتمعه الأساسية آنذاك : العلمية والسياسية والاقتصادية . وهذه طائفة منها ذكرناها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر . وقد وضعناها في مجاميع متماثلة منها مثلاً :

١ : **باب المفارقات** : [الحيوان ج٦ ص ٢١٥] « ذُكِرَ لي عن ابي بكر الهُذَلي قال كنا عند الحسن البصري إذ أقبل وكيع بن أبي الأسود فجلس فقال : يا ابا سعد ما تقول في دم البراغيث تصيب الثوب أيُصلّى فيه ؟ فقال الحسن : يا عجباً ممن ولغ في دماء المسلمين كأنه كلب ثم يسأل عن دم البراغيث!! » .

٢ : **باب الفراسة** : [المصدر نفسه ج٢ ص ٧٥] « حَجَّ إياس بن معاوية فسمع نباح كلب فقال هذا كلب مشدود . ثم سمع نباحه فقال قد أرسل . فانتهوا الى أصحابه فسألوهم فكان كما قال . فقال له غيلان أبو مروان : كيف علمتَ أنه موثق وأنه أُطلق ؟ قال : نباحه ـ وهو موثق ـ يُسمع من مكان واحد . فلما أُطلق سمعته يقرب مرةً ويبعد مرةً ويتصرَّف في ذلك » .

٣ : **باب التسامُح والترفُع** [البيان والتبيين ج٣ ص ١٤٠] « حين مرَّ عيسى بن مريم ببعض الخَلْق فشتموه . ثم مرَّ بآخرين فشتموه . فكلَّما قالوا شراً قال خيراً . فقال له رجل من الحواريين : كلّما زادوك شرّاً زدتَهم خيراً حتى كأنك إنَّما تُغريهم بنفسك وتحثُهم على شتمك !!! قال : كل انسان يُعطي ما عنده . » وذكر الجاحظ أيضاً [المصدر نفسه ج٢ ص ٧٨] : أن رجلاً وقف « على عامر الشعبي فلم يَدَعْ قبيحاً إلاّ رماه به فقال له عامر : إنْ كنتَ كاذباً يغفر الله لك . وإن كنتَ صادقاً يغفر الله لي . »

٤ : باب أهمية المهن الحرة : [المصدر نفسه ج٣ ص ١٩١] كتب الجاحظ « قيل إن عبد الملك بن مروان قال حين ثَقل عليه المرض - ورأى غسَّالاً يلوي ثوباً بيده - وُدّدتُ أنْ كنتُ غسَّالاً لا أعيش إلاّ بما اكتسب يوماً بيوم . فَذُكِرَ ذلك لأبي حازم فقال : الحمد لله الذي جعلهم - عند الموت - يَتمنَّون ما نحن فيه ولا نتمنَّى عند الموت ما هم فيه . »

٥ : تمتُّع الأغبياء بخيرات بغداد [البيان والتبيين ج١ ص ٢٢٧] استشهد الجاحظ ببيتي طارق بن أثال الطائي :

ما أنْ نزال ببغـداد يزاحمنا ... على البـراذين أشبـاهُ البراذين
أعطاهـم الله أمـوالاً ومنزلةً ... من الملـوك بلا عقـلٍ ولا دين

٥ : باب قول الحق : [المصدر السابق ج١ ص ٢٢٧] « قال أعرابي لهشام بن عبد الملك : أتتَ علينا منذ ثلاثة أعوام . فعامٌ أكل الشحم . وعام أكل اللحم . وعام انتقى العظم . وعندكم أموال . فإنْ كانت لله فادفعوها لعباده . وإن كانت لعباده فادفعوها اليهم . وإن كانت لكم فتصدَّقوا بها . »

٥ : باب «اختلاف الرأي لا يُفسد للمرء قضيَّة » [المصدر نفسه ج٢ ص ٧٠] : كتب الجاحظ « ولم يَرَ الناس أعْجَبَ من الكميت والطِّرماح : وكان الكميت عدنانياً عصبياً وكان الطِّرماح قحطانياً عصبياً . وكان الكميت شعبياً من الغالية وكان الطِرماح خارجياً من الصُفريِّة . وكان الكميت يتعصَّب لأهل الكوفة . وكان الطِرمَّاح يتعصَّب لأهل الشام . وبينهما - مع ذلك - من الخاصَّة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قطُّ . ثم لم يجرِ بينهما صرْم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال اليه . ولم يَرَ الناس مثلهما إلاّ ما ذكروا في حال عبد الله بن يزيد الاباطي وهشام بن الحكم الرافضي . فأنهما صارا الى المشاركة بعد الخِلْطَة والمصاحبة . »

٦ : باب عدالة الاسلام : أشار الجاحظ الى محاكمة الامام علي وهو خليفة امام القاضي شرُيح في نزاعه على درع مع أحد المواطنين النصارى . وإلى محاكمة عمر بن العزيز امام خلافته في نزاعه مع مواطن مصري من أهل حلوان وإصدار القاضي حكماً ضد الخليفة . وإلى محاكمة المأمون وهو خليفة لدى القاضي يحيى بن اكثم .

٦ : العوامل الخفية التي تدعو الخلفاء الى البطش بوزرائهم : [البيان

والتبيين ج٢ ص ٣٧٧] : قال الجاحظ « حدثنا احمد بن دؤاد قال قال لي المأمون : لا يستطيع الناس أن يُنصفوا الملوك من وزرائهم . ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحُماتهم وكُفاتهم وبين صنائعهم وبطانتهم . وذلك أنهم يرون ظاهر حُرمة وخدمة واجتهاد ونصيحة . ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهراً حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلاَّ رغبةً في ماله . . . وهناك خيانات في صُلْب المُلْك أو في بعض الحرم فلا يستطيع المَلِك ان يكشف للعامة موضع العَوْرَة في المُلْك . ولا أن يحتجَّ لتلك العقوبة بما تستحق ذلك الذنب ولا يستطيع الملك ترك عقابه لِمَا في ذلك من الفساد على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامَّة ولا معروف عند أغلب الخاصَّة . »

٧ : **تباين مواقف الفرد عند تباين الظروف** : [البيان والتبيين ج١ ص ٣٩٤ - ٣٩٥] « مرَّ غَيْلان بن خَرَشَة الضَّبِّي مع عبدالله بن عامر - أمير البصرة - على نهر أم عبدالله الذي يشق البصرة . فقال عبدالله : ما أصْلَحَ هذا النهر لأهل هذا المصر !!! فقال غيلان : أجَلْ - أيها الأمير - يُعلِّم القومُ صبيانهم السباحة فيه ويكون لسُقياهم ومسيل مياههم وتأتيهم فيه ميرَتهم . ثم مَرَّ غيلان بساير زيادا - أمير البصرة بعد ابن عامر - على ذلك النهر وقد كان عادى ابن عامر . فقال زياد : ما أضرَّ هذا النهر بأهل هذا المصر !!! فقال غيلان أجل - أيها الأمير - تَنِزُّ منه دورهم وتغرق فيه صبيانهم ومن أجله يكثر بعوضهم . » تلك ظاهرة اجتماعية معروفة يجتمع فيها الشيء ونقيضه ويستوي فيها المدح والقدح . وهي تقع في صميم ديالكتيك الحياة وفي صميم الجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ الذي مرَّ بنا الحديث عنه . وهي ظاهرة موضوعية - بنظرنا - لا تنطوي دائماً وحتماً او بالضرورة على التلون او التذبذب كما قد يبدو على السطح لأول وهلة . وقد أبدى الجاحظ نفسه - وفق منطقه الديالكتيكي الأصيل - ملاحظات بصددها طريفة وعميقة عندما قال « ان العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره . فاذا ابتُلِيَ به فَخَرَ به . ولكن لا يفخر لنفسه من جهة ما هجا به غيره . فافهم هذا . فان الناس يغلطون على العرب ويزعمون أنهم يمدحون الذي يهجونه . وهذا باطل . ليس شيء إلاَّ وله وجهان . فاذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين . وإذا ذمُّوا ذكروا اقبح الوجهين » . وتحضرنا - في هذه المناسبة - حادثة طريفة رواها صاحب زهر الآداب [ص ٣٨] ينسجم جوهرها مع الملاحظات السايكولوجية العميقة التي أبداها الجاحظ كما بينا . قال صاحب زُهر الآداب « وَفَدَ الى رسول الله الزِّبْرقان بن بَدْر وعمرو بن الأهْتَم . فقال الزبرقان : يا رسول الله أنا

سيد تميم والمطاع فهيم والمجاب منهم آخذ لهم بحقهم وأمنعهم من الظلم . وهذا يعلم ذلك ـ يعني عمراً . فقال عمرو : أجل يا رسول الله انه مانعٌ لحَوْزته مطاع في عشيرته شديد المعارضة فيهم . فقال الزبرقان : أما والله قد علم أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي . فقال عمرو : « أمَّا لَئِن قال ما قال فوالله ما علمتُه إلاّ ضيقَ العُطَن زمْرَ المروءة أحمقَ الأدب لئيم الخال حديث الغِنَى » . فرأى الكراهة في وجه رسول الله لَمَّا اختلف قوله فقال : يا رسول الله رَضيتُ فقلتُ أحْسَنَ ما علمتُ وغضبت فقلتُ أقبح ما علمتُ . وما كذبتُ في الأولى ولقد صدقتُ في الثانية . »

٨: وقد وردت استطرادات طريفة كثيرة منشورة في كتب الجاحظ منها بالإضافة الى ما ذكرناه منها ما ورد في كتاب البيان والتبيين [ج٢ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢] في معرض الإجابة الحسنة : « أَحَبَّ الرشيد ان يُنظر الى أبي شعيب القَلاَّل كيف يعمل القِلال . فأدخلوه القصر وأتوه بكلِ ما يحتاج اليه من آلة العمل . فبينا هو يعمل إذا هو بالرشيد قائم على رأسه . فلما رآه نهض قائماً . فقال له الرشيد : دونَكَ ما دُعِيتَ اليه فإني لم آتك لتقوم لي وإنَّما أتيتُك لتعمل بين يديَّ . فقال وأنا لم آتك ليسوء أدبي وإنما أتيتك لأزداد بك في كثرة صوابي . »

٩ : وهناك استطرادات أُخر كثيرة في التهذيب . منها قول اكثم بن صيفي « مَقتل الرجل بين فكيَّه » يعني لسانه . ومنها قول المُهلَّب لبنيه « اتقوا اللسان فإني وجدتُ الرجل تعثر قدمه فيقوم من عثرته . ويزلُ لسانه فيكون فيه هلاكه . » ومنها قوله « لَمَّا قُدِّم سقراط ليُقتَل بكت امرأته . فقال لها ما يبكيك ؟ قالت تُقتَل ظلماً . قال : أكُنتِ تحُبين أن أُقتَل حقاً !!! أو أُقْتَل ظلما ؟ ومنها أيضاً ان مصعب بن الزبير أسرَّ رجلاً مَن أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه . فقال : أيها الأمير !! ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة فأتعلَّق بأطرافك وأقول : ربي اسأل مصعباً فيمَ قتلني . فقال أطلقوه . فقال أيها الأمير اجعل ما وهبتَ لي من عُمري في خفض عيشي . فقال اعطوه مئة الف درهم . » واستشهد الجاحظ بأبيات علي بن الجَهْم لما حبسه المتوكل بتحريض احمد بن أبي دؤاد على ما يذكر الرواة :

قالت حُبِسْت فقلتُ ليس بضائري	حبسي وأيُّ مهندٍ لا يُغمَدُ
أوَ ما رأيتَ الليثَ يألَفُ غِيْلَه	كِبَراً وأوباش السِّباع تَردَّد
والنار في أحجارها مخبوءةً	لا تُصطَلَى إن لم تُثِرها الأزْنُد

والبـدر يُدركه الظـلامُ فتنجلي أيامُـه وكأنـــه متجدِّد
والحبسُ ما لم تَغْشَـه لدنيَّةٍ شَنعـاءَ نِعـمَ المنـزلُ المتورَّد
بيتٌ يُجـدِّد للـكريم كرامةً ويُزار فيه ولا يزور فيُحمَد
يا احمـدُ بنُ أبـي دؤادٍ إنَّما تُدعَـى لكل كريهـةٍ يا احمد
ان الـذين سَعَـوا اليك بباطل اعـداءُ نعمتـك التـي لا تُجحَد

وذكر الجاحظ أيضاً [البيان والتبيين ج١ ص ٨٣] « قال علي «قيمة كل امريء ما يُحسنه ». فلو لم نقف من هذا الكتـاب إلاّ على هذه الكلمـة لوجدناهـا شافية كافية . » وقال الجاحظ أيضاً [المصدر السابق ج١ ص ٨٤] « قد جمع محمد بن علي بن الحسين صلاح الدنيا بحذافيرها في كلمتين فقال « صلاح شأن جميع التعايُش والتعاشرُ ملء مكيال ثُلُثاه فِطْنَة وثُلُثُه تغافُل ». فلم يجعل لغير الفطنة نصيبـاً من الخير ولاحظاً من الصلاح لأنَّ الانسان لا يتغافل إلاَّ عن شيء فَطِنَ له ». وكتب الجاحظ [المصدر نفسه ج٣ ص ٢١٦ ـ ٢١٧] : « دخل زُفَر بن الحارث على عبد الملك بن مروان بعد الصلح فقال عبد الملك له : ما بَقِي من حُبِّك للضحَّاك؟ قال: ما لا ينفعني ولا يضرُّك . قال : شدَّ ما أحببتموه معاشر قيس . . . قال زفر : أحببناه ولم نداسه . ولو كنا داسيناه لقد كنا أدركنا ما فاتنا منه . قال ما منعك من مؤاساته ؟ يوم المَرَج ؟ قال زفر : الذي منع أباك من مواساة عثمان يوم الدار. » وكتب الجاحظ أيضاً [البيان والتبيين ج٣ ص ٢٠٥] « قال المهلَّب عجبتُ لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه. » وكتب أيضاً [المصدر نفسه ج٣ ص ١٧٥] « قال السكَن الخَرَشي اشتريتُ من أبي المنهال بن سلامة شاةً بستين درهماً . فقلت تكون عندك حتى آتيك بالثمن . قال ألستَ مسلماً ؟ قلت بلى . قال فخذها . فأخذتها حتى انطلقتُ بها . ثم أتيته بالستين . فأخرج منها خمسة دراهم وقال لي اعلفهـا بهذه. » وكتب أيضاً [المصدر نفسـه ج٣ مرة ١٦٥] « قيل لبعض العلماء مَنْ شرُّ الناس؟ قال من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً. » وكتب أيضاً [المصدر السابق ج٣ ص ١٣٠] « سُئل عمر بن عبد العزيز عن قَتلَة عثمان وخاذليه وناصريه . فقال : تلك دماء كفَّ الله يدي عنها فأنا لا أُحبُّ ان أغمس لساني فيها. » وكتب الجاحظ أيضاً [المصدر السابق ج٤ ص ٦٤] « دخل عمرو بن عبيد على المنصور وهو يومئذ خليفة. . . فقال عِظني يا أبا عثمان . فقال عمرو : ان الله أعطانا الدنيا بأسرهـا فاشترِ نفسك منه ببعضها . فلو أن هذا الأمر الذي صار اليك بقي فيمن كان قبلك لم

يصل اليك . »

١٠ : **طرائف لغوية** : كتب الجاحظ [البيان والتبيين ج٢ ص ١٤٧] « قال خالد بن الوليد لأهل الحيرة : أخرجوا إليَّ رجلاً من عقلائكم اسأله عن بعض الأمور . فأخرجوا اليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيَّان بن بُقَيْلَة وهو يومئذ ابن خمسين وثلثمائة سنة . فقال له خالد : من أين أقص أثرك ؟ قال من صُلْب أبي . قال فمن اين خرجتَ؟ قال من بطن أمي . قال فعلامَ أنت ؟ قال على الأرض . قال ففيمَ انت ؟ قال في ثيابي . قال ماسِنُّك ؟ قال عظم . قال أتعقل لاعقلتَ ؟ قال أيْ والله وأُقيِّد . قال ابن كم انت ؟ قال ابن رجل واحد . قال كم أتى عليك من الدهر ؟ قال لو أتى عليَّ شيء لقتلني . قال ما تزيدني في مسألتك إلاَّ غماً . قال ما أجبتُك إلاَّ في مسألتك » . وكتب الجاحظ أيضاً [المصدر نفسه ج١ ص ١١٤] « قال عبد الكريم بن رَوْح الغِفاري حدَّثني عمر الشمَّري قال قيل لعمرو بن عبيد ما البلاغة ؟ قال ما بلغ بك الجنة وعَدَلَ بك عن النار وبَصرَّك مواقع رشدك وعواقب غيِّك . قال السائل ليس هذا أردتُ . قال من لم يُحسن أن يسكتُ لم يُحسن أن يستمع . ومن لم يُحسن الاستماع لم يُحسن القول . قال ليس هذا أردتُ . . . قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة السكوت ومن سَقَطات الصمت . قال السائل هذا أُريد . قال عمرو فكأنك إنما تريد تخيُّر اللفظ في حسن الإفهام . قال نعم . » وقال أيضاً [المصدر نفسه ج٢ ص ٢٠٥] « كان يقال اللحن في المنطق أقبح من آثار الجُدَري في الوجه . . . . وقال أبو أيوب السجستاني : تعلموا النحو فانه جمال للوضيع وتركُه هُجْنَة للشريف . » وقال الجاحظ أيضاً [المصدر نفسه ج٢ ص ٢٠٥] « لَحَنَ الوليد بن عبد الملك على المنبر فقال الكَرِويُّ : لا والله إنْ رأيته على هذه الاعداد قطُّ فأمكنني أن املأ عيني منه من كثرته في عيني وجلالته في نفسي . فاذا لحن هذا اللحن الفاحش صار عندي كبعض اعوانه . »

١١ : **من باب التسلية** : كتب الجاحظ [البيان والتبيين ج٣ ص ٢٨٤] « رفع إعرابي يده بمكة قبل الناس فقال : اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس . » وكتب أيضاً [البخلاء ص ٢٣ - ٢٤] « قيل إن أحد الولاة بينما هو يوماً جالس في مجلس وهو مشغول بما به اذ نجم شاعر من بين يديه فأنشد شعراً مدحه فيه وقرَّظه ومجَّده . فلما فَرغ قال أحسنتَ . ثم اقبل على كاتبه فقال اعطه عشرة آلاف درهم . ففرح

الشاعر فرحاً يُستطار له . فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع . اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده . فلما رأى فرحه تضاعف . . . ـ قال لكاتبه ـ اعطه أربعين ألفاً . فكاد الفرح يقتله . فلما رجعتْ اليه نفسه قال الشاعر: انت ـ جُعِلتُ فِداك ـ رجل كريم وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددتُ فرحاً زِدتني في الجائزة . وقبولي هذا منك لا يكون إلاَّ من قلة الشكر لك . فدعا له وخرج . فاقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله !! هذا كان رضي منك بأربعين درهماً تأمرت له بأربعين الف !! قال يا احمق إنمّا هذا رجل سرَّنا بكلام وسررناه بكلام . هو حين زعم أني أحسن من القمر وأشد من الأسد . . . جعل في يدي شيئاً من هذا ؟ . . . ألسنا نعلم انه قد كذب ؟ ولكنه سرَّنا حين كَذِب لنا . فنحن أيضاً نسرُّه بالقول ونأمر له بالجوائز وإن كان كذباً . فيكون كذب بكذب وقول بقول . فأمَّا أن يكون كذب بصدق وقول بفعل فهذا هو الخُسران الذي ما سمعنا به . »

- ١٦ -

رابعاً : عنف الجاحظ وتجنِّيه : اتَّصف تفكير الجاحظ بالعنف اللامشروع أحياناً وبالتجني . ولعنفه هذا مضامين سايكولوجية عميقة من ناحية الجاحظ نفسه ومن ناحية من يوجِّه الجاحظ اليه ذلك العنف المشرب بالتأنيب . وقد تجلىً ذلك بأوضح صورة في رسالة التربيع والتدوير وبخاصة ديباجتها [ص ٥ ـ ٦] « قال عمرو بن بحر الجاحظ : كان احمد بين عبد الوهاب[١٠] مربَّعاً وتحسبه ـ لسعة جُفْرَته

---

(١٠) وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول أبا جعفر وتخاشنه وتُنافره وتراهنه !! ثم لا تفعل ذلك إلاَّ في المحافل العظام وبحضرة كبار الحُكّام . . . وأشهد بَعْدُ أنَّك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ثم تظارفه وتطاوله . . . وتستجهل النَّظَّام وتستبرد الأصمعي وتستغبي قيس بن زُهير وتستخف بالأحنف بن قيس وتبارز أبا الحسن . . . ثم تخرج من حدّ الغَلَبَة إلى حد المِراء ومن حدّ الأحياء إلى حدّ الموتى » . . . وأمَّا سبب الجفوة بين أحمد بن عبد الوهاب وبين الوزير ابن الزيات فقد ذكرها ابن الأمير في الجزء السابع من « الكامل في التاريخ » كما بينا .

يبدو أن الجاحظ كان متجنّياً على أحمد بن عبد الوهاب وانه بالغ في استهزائه به وجسد بتهويل بعض خصائصه السلبية الجسمية والثقافية ليحط من منزلته بنظر الناس . ويبدو أيضاً أن احمد هذا كان أحد كُتّاب الأمراء . وإن شقيقه صالحاً كان أيضاً كاتباً لصالح بن الرشيد . وله أخبار أدبية ومواقف حسنة وردت في كتاب الأغاني (في سياق أخبار خالد الكاتب) . كما ورد بعض أخباره في تاريخ الأمم والملوك للطبري أثناء ذكر حوادث عام ٢٢٣ هـ . وقد ساهم في فتح عمورية واشترك قبل ذلك في حرب بابك الخُرَّمي وولاه

واستفاضة خاصرته ـ مدوَّراً . وكان جَعْدَ الأطراف قصير الأصابع وهو في ذلك يدَّعي السَّباطَة والرَّشاقة . وكان كبير السن متقاوم الميلاد وهو يدَّعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد . وكان ادِّعاؤه لأصناف العلم على قَدْر جهله بها . وتكلُّفه للإبانَة عنها على قدر غباوته عنها . وكان كثير الاعتراض لِهَجاً بالمِراء شديد الخِلاف كَلِفاً بالمجاذبة متتابعاً في العنود . . . وكان قليل السَّماع غُمْراً وصُحُفياً غُفْلاً لا ينطق عن فكر ويثق بأول خاطر ولا يفصِل بين اعتزام الغُمرِ واستبصار المُحِقّ . يَعُدُّ اسماء الكتب ولا يفهم معانيها ويحسُد العلماء من غير أن يتعلَّق منهم بسبب . وليس في يده من جميع الآداب إلاَّ الانتحال لاسم الأدب . » وعنف الجاحظ يتَّضح بحادثة طريفة رواها ياقوت [معجم الأدباء ج٦ ص ١٠٤ ـ ١٠٥] تتعلق بأبي خلف سلام بن زيد الأندلسي الذي قصد الجاحظ من الأندلس الى بغداد ثم الى سر من رأى فالبصرة التي وجده فيها بين عدد من تلاميذه فسأل « أيُكم أبو عثمان ؟ فرفع يده وحركَّها في وجهي . وقال من أين ؟ قلت من الأندلس . فقال طينة حمقاء . فما الاسم ؟ قلت سلام . قال اسم كلب القرَّاد . ابن من ؟ قلت ابن يزيد . قال بحق ما صِرْتَ . ابو مَنْ ؟ قلتُ أبو خلف . قال كلب زبيدة . ما جئتَ تطلب ؟ قلتُ العلم . قال ارجع فانك لا تصلُح له . قلتُ له ما انصفتني . قال فترى حولي عشرين صبياً ليس فيهم ذو لحية غيري فكان يجب أن تعرفني بها . » ويجري هذا المجرى ان أبا جعفر الاسكافي نقض كتاب العُثمانية للجاحظ . وعندما علم الجاحظ بذلك دخل سوق الورَّاقين ببغداد ونادى بأعلى صوته : مَنْ هذا الغلام السَّوادي الذي بلغني أنَّه تَعرَّض لنقض كتابي ؟ وأبو جعفر جالس فاختفى منه حتى لم يره .

- ١٧ -

لقد مرَّ بنا القول ان الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ صبغت كتاباته جميعاً واتَّضحت بأجلى صورها في رسالة التربيع والتدوير وفي كتاب البخلاء وفي رسالة القيان وفي الأقسام غير المفقودة من كتاب اللصوص . وبما أن موضوع القيان وموضوع اللصوص موضوعان ممتعان وللجاحظ في كل منهما رأي طريف وجريء غير مألوف [بمقاييس مجتمعه وعصره وبمقاييسنا الاجتماعية الراهنة] فقد آثرنا أن نعالج

المعتصم اليمن ٢٢٤ هـ وبقي كذلك إلى أن غضب عليه الخليفة وعزله . ثم أعاده عليها عام ٢٣١ هـ وبعثه على حج ذلك العام . أما العامل الرئيس في موقف الجاحظ منه فيبدو أنه صدى لجفوة حصلت بين أحمد هذا وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات أشار إليها ابن الأثير كما بينا .

كلاً منهما على انفراد وأن نترك الجاحظ نفسه يتحدث بصورة مباشرة في موضوع القيان بالذات وأن يتحدث بشكل غير مباشر عن اللصوص المفقود عن طريق الذين احتفظوا بأجزاء منه .

كتب الجاحظ في موضوع القيان [رسائل الجاحظ / مكتبة الخانجي / ١٩٦٢ / القاهرة ص ٩٢ـ١٤٣]

« من أبي موسى بن اسحق ومحمد بن خالد وأبي الخيار . . . وخاقان بن حامد . . . واخوانهم المستمتعين بالنعمة والمؤثرين للذة المتمتعين بالقيان والأخوان . . . الى أهل الجهالة والجفاء وغلظ الطبع ونساء الحس . . . أمَّا بَعْدُ فانه ليس كل صامت عن حجته مبطلاً في اعتقاده ولا كل ناطق بها لا برهان لديه محقاً في انتحاله . والحاكم العادل مَنْ لم يَعْجَل بفعل القضاء دون استقصاء لحُجج الخُصَماء . . . وقد كنا ممسكين عن القول بحُجتنا فيما تضمَّنه كتابنا هذا اقتصاراً على أن الحق مكثفٍ بظهوره ومبينٌ عن نفسه . . . وعلمنا أن خُصماءنا وإنْ موَّهوا وزخرفوا غير بالغين للغَلَبة عند ذوي العدل دون الاستماع منا . . . إلى أن تَفاقَمَ الأمر وعيل الصبر . . . وبَعْدُ فان الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشاراة بالثمن ويحتاج البائع والمبتاع الى أن يستشفَّا العِلْق ويتأمَّلاه تأمُّلاً بيِّناً يجب فيه خيار الرؤية المشترطة في جميع البياعات وإنْ كان لا يُعرَف مبلغُه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يُعرَف بالحسن والقبح . » ثم يستطرد الجاحظ فيصف القينة ويحلل سلوكها وعلاقاتها الاجتماعية بالذين يقعون فريسة في شراكها ويكشف عن جوانبها السايكولوجية العميقة بشكل يثير الإعجاب والإستغراب : « إنَّ القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناجح في ودِّها لأنها مكتسبه ومجبولة على نصب الحِبالة والشَّرَك للمتربصين ليقتحموا في أنشوطتها . فإذا شاهدها المشاهد رَمَتْه بالحظ وداعبته بالتبسُّم وغازَلَتْه في اشعار الغناء ولَهِجَتْ باقتراحاته ونَشِطَتْ للشرُب عند شرُبه وأظهرت الشوق الى طول مكثْه والصَّبابة لسرعة عودته والحزن لفراقه . فاذا أحسَّ ان سِحرها قد نفذ فيه بدأت تزيد فيما كانت قد شرعت فيه . وأوهمَته ان الذي بها أكثر مما به منها . ثم كاتبته تشكو اليه هواه وتُقسم له انها مَدَّتْ الدواة بدمعها . . وأنها لا تريد سواه . . . ولا تنوي انحرافاً عنه . وأنها لا تريده لماله بل لنفسه وأنها لا تنام شوقاً اليه ولا تهنأ بالطعام وجداً به . وأنها جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه . » ويسترسل الجاحظ في وصف موقف القينة من فريستها ويتغلغل عميقاً في

نفسها ومشاعرها المفتعلة الزائفة « وأكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغور والحيلة في استنطاق ما يحويه المربوط - أي الذي تجعله أسير خداعها - والانتقال عنه . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون الاجتماع ويتغايرون عند الاجتماع . فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى . وتغمز هذا بذاك . وتُعطي واحداً سرَّها والآخر علانيتها وتوهمه انها له دون الآخر وأن الذي تُظهر خلاف ضميرها . وتكتب اليهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تَبرُّمهَا بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم . » ثم يتحدث الجاحظ عما تجنيه القينة وصاحبها من مال وجاه ونفوذ ممن افترستهم « ويرسلون الى بيت مالها بصنوف الهدايا . . . فالذي يقاسيه الناس من عَيلة العيال . . . هو - أي مالكها - عنه بمعزل . . . لا يهتم بغلاء الدقيق ولا عوز السُّديق ولا عِزَّة الزيت . . . ثم يستقرض إذا أعْسرِ ولا يُرَدُّ ويسأل الحوائج فلا يمُنَع . . والمُقين - أي صاحب القينة - أو مالكها - يأخذ الجوهر ويعطي العَرَض ويفوز بالعين ويعطي الأثر ويبيع الريح الهابَّة بالذهب الجامد وفِلَذِ اللجين والعَسْجَدَ . . . » ويسترسل الجاحظ فيتحدّث عن موقف المقين من علاقة القينة بزبائنها « ويُعرِض عن الغمزة ويغفر القبلة ويتغافل عن الإشارة ويتعامَى عن المكاتبة ويتناسى الجارية يوم الزيارة » ثم يتحدث الجاحظ عماً يجنيه المقين من الزبائن على اختلاف مشاربهم ومواقعهم الاجتماعية : « ويُعِدُّ لكل مربوط على حدة ويعرف ما يصلُح لكل منهم كما يميِّز التاجر أصناف تجارته فيُسعِّرها على مقاديرها . فمن كان ذا جاه من الرُّبَطاء اعتمد على جاهه وسأله الحوائج . ومن كان ذا مال ولا جاه له استقرض منه مالاً بلا عينة . ومن كان من السلطان بسبب كُفِيَتْ به عادية الشرَط والاعراف . . » ويختتم الجاحظ هذه الرسالة التي ابتدعها على ما يبدو وجعلها لسان الحال لا لسان المقال بالعبارات التالية « هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة الى من سمَّيناهم في صدرها . فان كانت صحيحة فقد ادَّينا منها حق الرواية . والذين كتبوها أولى بما قد تقلّدوا من الحُجَّة منها وان كانت منحولة فمن قبل الطفيليين . »

أمَّا في كتاب اللصوص - أو الأجزاء الموجودة لدينا منه بتعبير أدق - فيتحدث الجاحظ عن السرقة باعتبارها مهنة أو حرفة كغيرها من الحرف . وقد أورد عبارات على لسان عثمان الخياط أحد كبار مؤيديهم يحتجّ للسرقة والسرَّاق . فقال [كتاب الفرج بعد الشدة / للتنوخي ص ١١٩ - ١٢٠] « لم تزل الأمم يسبي بعضها بعضاً

ويُسمُّون ذلك غزوا وما يأخذونه غنيمة وذلك من ناحية الكسب . » ثم يخاطب اللصوص على لسان الخيَّاط أيضاً « وأنتم في أخذ مال الغَـدَرَة والفَجَرَة أعْذَر : فسمُّوا انفسكم غزاة كما سمَّى الخوارج انفسهم شراة . » ثم يذكر الجاحظ حوادث طريفة في هذا الباب [المصدر السابق ص ١١٩ - ١٢٠] « حُدِّث عن احد التجار البغداديين أنه قال خرجتُ بمبلغ لي ومتاع من بغداد أريد واسطاً . وكان البُريدي بها والدنيا مُفْتَتِنة . فقطع عليَّ الطريق وعلى امكار الذي كنتُ فيه لص كان في الطريق يقال له ابن حمدون . . . فأفقرني وكان معظم ما أملكه معي . فسهُل عليَّ الموت . وطَرَحْتُ نفسي له . وكنتُ اسمع ببغداد ان ابن حمدون فيه فتوّة وظُرف وأنه إذا قطع لم يتعرَّض لأصحاب البضائع القليلة . . . . وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة شيئاً قاسمه عليه فترك شَطْر ماله في يديه . وأنَّه لا يفتش امرأة ولا يسلبها . . . فأطمعني ذلك في أن يرقّ لي . فصعدتُ الى الذي هو فيه جالس . فخاطبتُه في أمري ورقَّقْتُه ووعظته وقلتُ له : إن جميع ما امتلكه قد أُخِذَ مني وأنني احتاج الى ان اتصدَّق من بعده . فقال لي : يا هذا لعن الله السلطان الذي أحوَجنا الى هذا فإنَّه قد أسقط أرزاقنا فاحتجنا الى هذا الفعل . وليس فيما نفعل ارتكاب أمر أعظم مما يرتكبه السلطان . وأنت تعلم ان ابن شيراز ببغداد يصادر الناس ويُفقرهم حتى يأخذ الموسر المكثر ويخرج من حبسه وهو لا يهتدي الى شيء غير الصدَقَة . وكذلك يفعل البريدي بواسط والبصرة والديلم وبالأهواز . ثم قال : كم أُخِذَ منك ؟ فصدَقتُه . فقال احضروه . فأُحْضِر وكان كما ذكرتُ . فأعطاني نصفه . فقلتُ الآن قد وجب حقي عليك وصار لي باحسانك إليَّ حُرْمَة . فقال : أجَلْ . فقلتُ ان الطريق فاسدة وما إلاَّ أتجاوزك حتى يُؤْخَذ هذا أيضاً . فانقذ معي من يؤديني الى المأمَن . ففعل ذلك وسَلِمتُ بما أفْلَتَ معي . »

ووردت في المصدر نفسه [ص ١١٧ - ١١٨] حوادث مثيرة أُخَر منها قضية عبدالله بن عمرو الحارث « قال كنتُ مسافراً في بعض الجبال . فخرج علينا ابن سَيَّار الكرد . فقطع علينا . وكان بزِيِّ الأمراء لا بزي القُطَّاع . فقربتُ منه أنظر اليه وأسمع كلامه فوجدته يدل على فهم وأدب . قد أخلَتُه فاذا برجل فاضل يروي الشعر ويفهم النحو . فطمحتُ فيه . وعملتُ - في الحال - أبياتاً مدحتُه بها . فقال لست أعلم أن هذا من شعرك ولكن اعمل لي على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة لأعلم انك قلته . وأنشدني بيتاً . فعملتُ في الحال إجازة له ثلاثة أبيات فقال لي :

أيُّ شيء أُخِذَ منك لأردَّه عليك ؟ فذكرتُ ما أخذ مني واستضفتُ اليه قماش رفيق كان معي . فردَّ جميع ذلك . ثم أخذ من أكياس التجار التي نهبها كيساً فوهبه لي . فجزيتُه خيراً ورددتُه عليه . فقال لي لم تأخذه ؟ فواريتُ في كلامي . قال أُحِبُّ ان تَصْدُقَني . فقلتُ وأنا آمن !! قال نعم . قلتُ لأنك لا تملكه وهو من أموال الناس أخذتَه منهم الساعة فكيف يحل لي أخذه ؟ فقال لي : أما قرأتَ ما ذكره الجاحظ في كتاب اللصوص عن بعضهم ؟ قال : أن هؤلاء التُّجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها وتجرَّدوا فتُركتْ عنهم فصارت أموالهم بذلك مُسْتَهلكة . واللصوص فقراء اليها . فإنْ أخذوا أموالهم ـ وإنْ كَرِه التجار أخذها ـ كان ذلك مباحاً لهم لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كَرِهوا . فقلتُ بلىَ قد ذكر ذلك الجاحظ . ولكن من أين تعلم ان هؤلاء ما استهلكت الزكاة أموالهم ؟ قال لا عليك . أنا أحضر هؤلاء التجار الساعة وأُريك بذلك دليلاً صحيحاً أنَّ أموالهم لنا حلال . ثم قال لأصحابه هاتوا التجار . فجاؤوا بهم . فقال لأحدهم : منذ كم تَتَجَّر في هذا المال الذي قطعناه عليك ؟ قال منذ كذا وكذا سنة . قال : فكيف كنتَ تخُرِج زكاته ؟ فتَلجج وتكلَّم بكلام من لا يعرف الزكاة على حقيقتها فضلاً عن أن يخرجها . ثم دعا بآخر . . . فما أحسن الجواب . . . ثم دعا بآخر . . . فما فهم السؤال فضلاً عن تعاطي الجواب . . . فصرَفَهم . . ثم قال لي بأن لك صدق حكاية أبي عثمان الجاحظ . . . خُذ الكيس . فأخذته . . . »

وحادثة طريفة أخرى رواها الجاحظ[المصدر نفسه] عن أحد قضاة بغداد أنه قال « لَمّا كنتُ مقيماً بالكرخ اتقلّد القضاء بها . » كان معي رجل له ابن صبي . فأقام معي أبوه عشر سنين . وكان الصبي يدخل داري ويمرح مع غلماني . . ثم صرِفْتُ عن الكرخ ورحلتُ ولم أعرف للرجل ولا لابنه خبراً ، حتى مضت السنون . فأنقذني عبدالله البريدي من واسط برسالة الى أبي بكر بن رائق . . فخرج علينا اللصوص في سفن عدة . . . وإذا بسفينة فيها رئيسهم . . فلما رآني منع أصحابه من انتهاب شيء مني . . . وصعد وحده إليَّ فتأمَّلني ثم انكبَّ فقبَّل يدي . وكان متلثماً فلم أعرفه . فارتعتُ وقلتُ يا هذا ما لك ؟ فقال لي أما تعرفني يا سيدي ؟ فتأمَّلتُه ـ وأنا جزع ـ فلم أعرفه . فقلتُ لا والله . قال بلى وأنا عبدك بن فلان الكرخي حاجبك وأنا الصبي رُبِّيتُ في دارك . . . فسكن روعي وقلت يا هذا كيف بلغتَ الى هذه الحال ؟ قال نشأتُ فلم أتعلّم غير معالجة السلاح وجئتُ الى بغداد

أطلب أن يدان فما قبلني أحد . فانضممتُ الى هؤلاء وطلبتُ الطريق . فلو كان انصفني السلطان ونزّلني بحيث استحق من الشجاعة لانتفع بخدمتي وما فعلتُ هذا . »

ومن أطرف حيل السرّاق في الليل ما ذكره الجاحظ [المصدر نفسه ص ١٢٣ - ١٢٥] عن رجل قال « كنتُ نافذاً بالأُبلَّة لرجل تاجر فاقتضيتُ له من البصرة نحو الخمسمائة دينار عيناً وورقاً ولففتُها في فوطة وأردتُ السفر مساء الى الأُبلَّة . فما زلتُ أطلب ملاَّحاً فلم أجد الى ان رأيتُ ملاَّحاً مجتازاً في خيطية خفيفة فارغة فسألته ان يحملني . فسهَّل عليَّ الاجرة . . . وجعلتُ الفوطة بين يدي . . . وسرنا . . . فاذا رجل ضرير على الشط يقرأ أحسن قراءة تكون . . فصاح بالملاَّح احملني . . فشتمه الملاَّح . . . فقلتُ يا هذا احمله فدخل الى الشط وحمله . فلما حصل معنا رجع الى قراءته فخلب عقلي بطيبها . فلماَّ قَرُبنا من الأُبلَّة . قطع القراءة وقام ليخرج في بعض الشارع الى الابلة . فلم أرَ الفوطة . فقمتُ واقفاً فاستغاث الملاَّح وقال الساعة تُقلَب الخيطية . وخاطبني بخطاب من لا يعلم بحالي . . فقلتُ يا هذا كانت بين يديَّ فوطة فيها خمسمائة دينار . فلماَّ سمع بكى . وقال لم أدخل الشط بعد ولا لي مواضع اخبيء فيها شيئاً فتتهمني بالسرقة ولي أطفال وأنا ضعيف فاتقِ الله . . وفعل الضرير مثل ذلك . . فرجحتُ وقلتُ هذه محنة . . وأخذ كل منا طريقه . . وأنا أمشي وأتعثر إذ اعترضني رجل . . فأخبرته . . فقال امضِ الى السجن . . وسل عن رجل محبوس يقال له أبو بكر البغَّاش . . فجئته فقال امضِ الساعة الى بني هلال . . فانك تشاهد باباً شَعثاً فافتحه وادخله بلا استئذان . . وقل لمن فيه خالي أبو بكر البغاش يقول ردوا على ابن اختي الفوطة . . فخرجت . . فرُدَّت الفوطة عليَّ بعينها . . ورأيت الملاح وصاحبه فقلت كيف فعلتما ؟ فقال الملاح أنا أدور الشارع في أول أوقات المساء وقد سُبِقْتُ بهذا المتعامي فاجلسته حيث رأيت . فاذا رأيتُ من معه شيئاً له قدر ناديته وأرخصتُ عليه وحملته . فاذا بلغت القاريء المتعامي وصاح شتمتُه حتى لا يشك الراكب في براءة ساحتي . فان حمله الراكب فذاك . وإن لم يحمله رقَّقتُ عليه حتى يحمله . . فاذا بلغنا الموضع الفلاني فإنَّ فيه رجلاً متوقعاً لنا يسبح حتى يلاصق السفينة وعلى رأسه قوصرة . والراكب لا يفطن له . فيأخذ المتعامي الشيء الذي مع الراكب بحيلة خفية ويلقيه في القوصرة . فيأخذه هذا ويسبح الى الشط . فاذا أراد الراكب النزول وافتقد ما معه عملنا كما رأيت فلا

يتهمنا . ونتفرق . فاذا كان في الغد اجتمعنا فاقتسمنا ما أخذناه . واليوم كان يوم الفسحة ـ فلما جئتَ برسالة استاذنا سلّمنا اليك الفوطة . » لا شك في أن الجوانب السايكولوجية العميقة التي تنطوي عليها هذه الحيلة الطريفة واضحة للعيان .

وفي اختتام هذا البحث الموجز عن الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ نود أن نقتطف فقرات ممتعة ذات محتوى سايكولوجي ورد بعضها في رسالته الموسومة « فصل ما بين العداوة والحسد . » كما وردت في كتاب رسائل الجاحظ (مكتبة الخانجي بالقاهرة / ١٩٦٢ ج١ ص ٣٣٨ ـ ٣٤٣). والمقصود هنا بكلمة «فصل» «فرق» ما بين العداوة والحسد . وقد ثبت أن للجاحظ رسالة أخرى في موضوع مماثل عنوانها « رسالة الحاسد والمحسود » . ويبدو أن الرسالة المشار اليها قد ألّفها الجاحظ لأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل . أمّا الفقرات الأخر التي ستكون نهاية بحثنا هذا فمقتبسة من رسالة ابتدعها الجاحظ عنوانها « رسالة في صناعة القوّاد » (المصدر السابق ١ ص ٣٧٩ ـ ٣٩٣ وزعم ـ دون سند تاريخي ـ أنّه رفَعَها الى المعتصم في الحضّض على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب . وفيها يتجلى ظُرف الجاحظ وهَزْله ودُعابته . كتب الجاحظ في رسالة : فصل ما بين العداوة والحسد (ص ٣٣٨ ـ ٣٤٣) « أنّه لم يخلُ زمن من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلا وفيه علماء محقّون . . . فوضعوا الكتب في ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم . . . ولهم حُسّاد معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم والكتب يدّعون مثل دعاويهم . : . فاستمالوا ـ بهذه الحيلة ـ قلوب ضعفاء العامة وجهلاء الملوك واتخذهم المعادون للعلماء المحقين عُدَّةً يستظهرون بهم هذه العامّة . . . وجرّأهم على ذلك ما رأوا من ميل جهلاء الملوك منهم عليهم . . . ولستُ آمن ـ جعلني الله فداك ـ ان تكون هذه الكتب التي أُعنيَ بتأليفها وأتأنّقُ في ترصيفها يتولىّ عَرْضَها عليك من قد لَبِس لباس الزُّور في انتحال وَضْع مثلها . . بل لا آمن أن يتجاوز ذلك الى الطعن عليها بقول أو إشارة فيوهم فساد معانيها ويومي الى سقوط ألفاظها . . . وليس يقابله أحد بردّ . . . قال بشر المُريسي عُرِضَ كتابي على المأمون في تحليل النبيذ وبحضرته محمد بن أبي العباس الطُّوسي . فانبرى للطعن عليه والمعارضة للحجج التي فيه وأسهب في ذلك وخطبَ وأكثرَ وأطنب . فقَلِقَ المأمون واحتدم وهاج واضطرم . . . فلما لم ير أحداً بحضرته يذب عن كتابي قال متمثلاً :

يا لك من قُبرة بمَعْمَر خَلاَلِك الجوُّ فيضي واصفري
وتقرِّي ما شئتِ ان تنفرِّي

فما كان إلاّ رَيْثْ فراغه من التمثُّل بهذه الأبيات حتى استؤذن لي فدخلتُ عليه . فقال: يا أبا عبد الرحمن ما تقول في النبيذ؟ ؟قلتُ حِلٌ طِلق يا أمير المؤمنين. . . . فقال ان محمداً يخالفك . فأقبلتُ على أبي العباس فقلتُ له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال لا خلاف بيني وبينك . . . كلاماً يوهم به أهل المجلس حُبّاً للتسلُّم مني والتخلُّص من مناظرتي لأعلى حقيقة التحليل . . . فأطنبتُ في معاني تحليل النبيذ وابن أبي العباس ساكت لا ينطق . . . وكان قبل دخولي ناطقاً لا يسكت » . ويستطرد الجاحظ فيقول (ص ٣٥٠ ـ ٣٥١) « وإنّي ربما ألفّتُ الكتاب للمحكَم المتضمن . وأنسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم للحسد المركَّب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاعته . وأكثرُ ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والحطّ والرفع والترغيب والترهيب فانهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة . . فان أمكنهم حيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي أُلِفَّ له فهو الذي قصدوه وأرادوه وإن كان السيد المؤلَّف فيه الكتاب تحريرا ، نقّابا وتقربا بليغاً وحاذقاً فطناً ـ وأعجزتهم الحيلة ـ سرقوا معاني ذلك الكتاب وألّفوا من أغراضه وحواشيه كتابا واهدوه الى تلك آخر ومشوا اليه به وهم قد ذمُّوه وقلبوه لمّا رأوه منسوباً إليَّ وموسوما بي . . . وربما ألفّتُ الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على مَنْ تقدَّمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسَلْم صاحب ببث الحكمة ويحي بن خالد والعتَّابي ومَنْ أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم ـ الطاعنون على الكتاب الذي كان أُحكَمَ من هذا الكتاب ـ لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليَّ . ويكتبونه بخطوطهم ويضيِّرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدَّبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنّي لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبتُ لهم به رياسة ويأتمّ بهم قوم فيه . . . ولربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحْصَفا كأنّه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكَمة وألفاظ شريفة قصيرة فأخاف عليه طعن الحاسدين إنْ أنا نسبته الى نفسي واحسد عليه مَنْ أهِمُّ بنسبته اليه لجودة نظامه وحسن كلامه فأظهره مُبهماً غُفْلاً في أعراض أصول الكتب التي لا يُعرَف وقّاعها فينهالون عليه انهيال الرَّمل ويستبقون الى قراءة سياق الخيل يوم الحَلْبَة الى

غايتها . »

وكتب الجاحظ في رسالة : في صناعات القُوَّاد . (المصدر السابق ص ٣٧٩ - ٣٩٣) ما يلي :

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : « دخلتُ على أمير المؤمنين المعتصم فقلتُ له : يا أمير المؤمنين في اللسان عشر خصال فهو أداة يظهر بها البيان وشاهد يخبر عن الضمير وحاكمٌ يفصل بين الخطاب وناطقٌ يردُّ به الجواب وشافعٌ تُدْرَك به الحاجة وواصفٌ تُعرَف به الاشياء وواعظٌ يُعَرف به القبيح ومُعِزٌ يردُّ به الأحزان وخاصَّةٌ يُزْهَى بالصَنيعَة ومُلَة الأسماع . . فَخُذْ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل أدب فانك إنْ أفْردتهم بشيء واحد ثم سُئِلوا عن غيره لم يحسنوه . . . وذلك أنّي لقيتُ حزاماً حين قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم فسألته عن الحرب كيف كانت هناك - وهو صاحب خيلك - فقال - لقيناهم من مقدار صحن الاصطبل فما كان إلاّ بمقدار ما يَحُسُّ الرجل دابته حتى تركناهم في أضْيَق من مُمَرَّغَة . . .

وعمل أبياتاً في الغزل :

إنْ يهدم الصَّدُّ من جسمي معالِفَه
فإن قلبي بِقَتٍّ الوجد معمورُ
إنِّي امرؤٌ في وثاق الحُبِّ يكبحه
لجامُ هَجْرٍ على الأسقام معذورُ

. . . قال وسألتُ بختيشوع - الطبيب - عن مثل ذلك فقال : لقيناهم في مقدار البيمارستان . فما كان بقدر ما يختلف الرجل مقعدين حتى تركناهم في أضيق من مِحْقَنة . فقتلناهم . . . فلو طرحتَ مِبضعاً ما سقط إلاّ على رجل . وعمل أبياتاً في الغزل . . .

شرب الوصل دَسْبَحَ الهجر فاستطلَقَ بَطْنُ الوصال بالإسهالِ
ورماني حيٍّ بقولنجَ بَيْنٍ مُذهلٍ عن ملامة العُذّالِ

. . . قال وسألت جعفر الخياط فقال : لقيناهم في مقدار سوق الخُلقان . فما كان بقدر ما يخيط الرجل دَرْزاء حتى قتلناهم في أضيق من جُرُبان جيب القميص .

فلو طُرِحَتْ إبرة فاسقطت إلا على رأس رجل... وعمل أبياتاً في الغزل...

فَتَقَتَ بالهجر دروزَ الهوى | اذ وَخَزتني إبرَهُ الصَّدِّ
فالقلبُ من ضيق سراويله | يعتبرُ في بابكة الجهد
خَشَمَتَني طلسان الهوى | منك على شَوْزَكتي وجدي
أزرار عيني فيك موصولةٌ | بعروة الدمع على خدي
قد قصَّ ما يعهد من وصله | مقراضُ بين مُرهفُ الحَدِّ

.... قال وسألتُ اسحق بن ابراهيم عن مثل ذلك ـ وكان زرَّاعا فقال: لقيناهم في مقدار جريبين من الأرض حتى قتلناهم.. فتركناهم في أضيق من باب وكأنهم أنابير سنبل. فلو طُرِحَ فدّانَ ما سقط إلاّ على ظهر رجل... وعمل أبياتاً في الغزل...

زرعتُ هواه في كراب من الصَّفا | وأسقيتُه ماء الدوام على العهد
فلماَّ تعالى النبتُ واخضرّ يانعاً | جَرَى يزفانُ البين في سُنبل الوُدِّ

... قال وسألت فرجا الراجحي عن مثل ذلك ـ وكان خبَّازاً ـ فقال لقيناهم في مقدار بيت التَّنُّور. فما كان بقدر ما يخبز الرجل خمسة أرغفة حتى تركناهم في أضيق من حجر تنُّورفلو سقطت حجرة ما وقعت إلاّ في حَفْنَة خبَّاز... وعمل أبياتاً في الغزل..

قد عَجَنَ الهجرُ دقيقَ الهَوَى | في جَفْنَةٍ من خَشَب الصُّدِّ
واختمر البينُ فنارُ الهوى | تُذْلى بسرجين من البُعْد
واقبل الهجر بمحراثه | يفحص عن أرغفة الوجد

... قال وسألت عبد الله بن عبد الصمد بن أبي دؤاد عن مثل ذلك ـ وكان مؤدِّباً ـ فقال لقيناهم في مقدار صحن الكتَّاب حتى الجأناهم الى أضيق من رقم فقتلناهم فلو سقطتْ دواة ما وقعت إلاَّ في حجر صبي... وعمل أبياتاً في الغزل...

لقد أمات الهجران صبيبانَ قلبي | ففؤادي مُعذَّبٌ في خَبَال

... قال وسألتُ عن بن الجهم بن يزيد وكان صاحب حمَّام ـ عن مثل ذلك ـ

فقال لقيناهم في مثل بيت الأنبار فما كان إلاّ بقدر ما بغسلِ الرجُلُ رأسه حتى تركناهم في أضيق من باب الأتون. فلو طُرِحتْ ليفة ما وقعت إلاّ على رأس رجل. . .

وعمل أبياتاً في الغزل:

يا نورَة الهجر حَلَقْت الصَّفا	لما بَدَتْ لي ليفةُ الصَّدّ
يا مئزر الاسقام حتى متى	تُنقع في حوضٍ من الجَهْد
أوقد اتونَ الوصل الى مَرَّةً	منكَ زنبيل من الوُد
فيابينُ مذ أوقدَ حمَّامة	قد هاج قلبي مَسْلخُ الوجد

. . . قال وسألت الحسن بن أبي قماشة عن مثل ذلك ـ وكان كنّاسا . فقال : لقيناهم في مقدار سطح الايوان فما كان إلاّ بقدر مايكنس الرجل زنبيلا حتى تركناهم في أضيق . . . ثم قتلناهم. . . وعمل أبياتاً في الغزل. . .

خنافس الهجران اشكلتني	يوم قوليَّ مُعْرِضاً صبري

قال وسألتُ احمد الشرَّابي عن مثل ذلك فقال : لقيناهم في مقدار صحن بيت الشرّاب فما كان بقدر ما يَقتضي الرجل دناً في أضيق من رَطِيلة فقتلناهم فلو رميت تفاحة ما وقعت إلاّ على أنف سكران. . . وعمل أبياتاً في الغزل. . .

شربت بكأس للهوى نيره معاً	ورقرقتْ خمرة الوصل في قَدَح الهجر
فمالت بدناه الين يدفعها الصِّبا	فكسَّرت قرّابات حزني على صدري

. . . قال وسألت عبد الله بن طاهر عن مثل ذلك وكان طباخا فقال لقيناهم في مقدار صحن المطبخ مما كان بقدر ما يشوي الرجل حملا حتى تركناهم في أضيق من موقد فقتلناهم فلو سقطت مِغرفة ما وقعت إلاّ في قِدْر. . . وعمل أبياتاً في الغزل. .

يا شبيه الغالوذ في حمرة الخد	ولو زينج النفوس الظِّماءِ
يا نسيم القدور في يوم عرس	وشبيهاً بشهدة صفراء
أطْعَم الحاسدون الوانَ غمٍّ	في قصاع الأحزان والأدواء
قد غلا الغلب مُذْنأتْ عنك داري	غليان القدور عزّ الصَّلاء

. . . قال وسألتُ ـ أطال الله بقاءك ـ محمد بن داود الطوسي عن مثل ذلك وكان فرّاشاً فقال لقيناهم في مقدار صحن بساط مما كان إلاّ بمقدار ما يفرش الرجل

بيتا حتى تركناهم في أضيق من مِنِصَّة فقتلناهم فلو سقطت فخذَّة ما وقعَتْ إلاّ على رأس رجل. . . ثم عمل أبياتاً في الغزل. . .

نَسَجَ الهجرُ ساحة الوصل لمَّا ... غيَّر اليمين في وجوه الصَّفاء
فَرشَ الهجر في بيوتَ هموم ... نحتَ رأس وسادة البُرَجاء

. . . قال فضحك المعتصم حتى استلقى ثم دعا مؤدب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم ».

- ١٨ -

تلك هي - بنظرنا - المعالم الكبرى للجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ التي هي تعبير دقيق عن الملامح العامة لسلوكه وعلاقاته الاجتماعية بالآخرين التي هي بدورها نتاج عصره ومجتمعه بعد التحليل الدقيق . والعلاقات الاجتماعية المشار اليها لا تخلو - كما لاحظنا - من المواربة أو المداجاة التي تصبغ سلوك غالبية الناس في كل زمان ومكان مع اختلاف في الدرجة وذلك بفعل ظروف اجتماعية قاهرة لا سيطرة لهم عليها . وهذا يذكرنا ان الأمين قال مرةً لأبي فؤاس : اذا قلت في الخصيب:

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابُنا ... فأيُّ فتىً بعد الخصيب تزور

فماذا أبقيت لي؟ قال قولي يا أمير المؤمنين :

اذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت كما نُثني وفوق الذي نُثني
وإنْ جرت الألفاظُ يوماً بمِدْحَةٍ ... لغير انسان فانت الذي نعني

(١١) تتجلّ روعة كتاب البخلاء للجاحظ إذا ما قورن بكتاب البخلاء لأبي بكر احمد بن علي ثابت الخطيب البغدادي المتوفي ٤٦٣ هـ الذي عثرت على نسخة مخطوطة له في مكتبة المتحف البريطاني وصوَّرتها حبذا لو ساعدت وزارة الثقافة والإعلام على نشرها - في حالة كونها لم تنشر سابقاً - .

أهم مصادر البحث

١ ـ الجاحظ / كتاب الحيوان / مكتبة مصطفى البابي الحلبي : القاهرة / ١٩٣٨ .

٢ ـ الجاحظ / كتاب البيان والتبيين / مكتبة الجانجي / ١٩٦٠

٣ ـ الجاحظ / المحاسن والأضواء / القاهرة / مطبعة / سعادة / ١٣٢٤ هـ

٤ ـ الجاحظ / في الرد على النصارى / المطبعة السلفية / القاهرة / ١٣٨٢ هـ

٥ ـ الجاحظ / كتاب التبصر بالتجارة / دمشق / دار الكتاب الجديد / ١٩٦٦

٦ ـ الجاحظ / في ذم أخلاق الكتاب / المطبعة السلفية / القاهرة / ١٣٨٢ هـ

٧ ـ الجاحظ / التاج في أخلاق الملوك / القاهرة / المطبعة الأميرية / ١٩١٤ .

٨ ـ الجاحظ / البخلاء / القاهرة / دار المعارف / ١٩٦٢ وأيضاً منشورات مكتبة العرفان / بيروت ١٩٥٥

٩ ـ الجاحظ / فلسفة الجد والهزل / بيروت / منشورات حمد

١٠ ـ الجاحظ / التربيع والتدوير / المطبعة الكاثوليكية / بيروت ١٩٥٥ وأيضاً الشركة اللبنانية للكتاب / بيروت ١٩٦٩

١١ ـ الجاحظ / مفاخرة الجواري والغلمان / بيروت دار الكشوف / ١٩٥٧

١٢ ـ الجاحظ / فخر السودان على البيضان / مطبعة السنة المحمدية / القاهرة / ١٩٦٤

١٣ ـ الدكتور حاتم صالح الضامن / ما لم ينشر من تراث الجاحظ / وزارة الثقافة والإعلام / بغداد ١٩٧٩ .

١٤ ـ ياقوت / معجم الأدباء / الجزء الثالث (٧٤ ـ ١١٤)

١٥ ـ ابن خلكان / وفيات الاعيان / دار الثقافة / بيروت المجلد الثالث ص ٤٧٠ ـ ٤٧٥

١٦ ـ القالي / الأمالي / المطبعة التجارية / القاهرة / ١٩٥٤

١٧ ـ الثعالبي / يتيمة الدهر / القاهرة / مطبعة السطادة / ١٣٧٧ هـ

١٨ ـ ابن قتيبة / المعارف / القاهرة / مطبعة دار الكتب / ١٩٦٠

١٩ ـ ابن الأثير / المثل السائر / القاهرة / مكتبة نهضة مصر / ١٩٦٢

٢٠ ـ ابن الأثير / الكامل في التاريخ

٢١ ـ أبو هلال العسكري / ديوان المعاني القاهرة / مكتبة القوسي / ١٣٥٢ هـ

٢٢ ـ الحائري / الدكتور طه / الجاحظ

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٣٣٨
لسنة ١٩٨١

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دار الرشيد للنشر

مؤسسة الرياض للطباعة العامة
كويت

الدار الوطنية للتوزيع والاعلان
بغداد

تصميم الغلاف :
موفق ابراهيم الوينداوي

السعر ١٠٠ فلس